غسان كنفاني

ارض البرتقال الحزين





سلسلة أعمال غسان كنفاني ٢

غسان كنفاني

ارض البرتقال الحزين

سلسلة أعمال غسان كنفاني ٢

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
مؤسسة غسان كنفاني الثقافية

* أرض البرتقال الحزين، قصص قصيرة لغسان كنفاني

* الطبعة الرابعة ١٩٨٧، (الطبعة الثالثة ١٩٨٣، الطبعة الثانية ١٩٨٠، الطبعة الأولى ١٩٦٢)

* الناشر: مؤسسة الأبحاث العربية، ش.م.م.
ص.ب. ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران)، بيروت ـ لبنان.
هاتف ٦/ ٨١٠٠٥٥، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا ـ لبنان.

— **IAR (RAWAFID) Ltd.**

P.O. Box 7047, Nicsia, Cyprus.
Tel. (356) 2 - 452670, TLx. 5223 Rawafid -Cy

* تصميم وإخراج وتنفيذ: دار المثلث، ش.م.م. - بيروت.

غسّان كنفاني

* ولد غسان كنفاني في عكا عام ١٩٣٦، وعاش في يافا واضطر الى النزوح عنها كما نزح آلاف الفلسطينيين بعد نكبة **١٩٤٨** تحت ضغط القمع الصهيوني، حيث اقام مع ذويه لفترة قصيرة في جنوبي لبنان، ثم انتقلت العائلة الى دمشق.

* عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني، وبدأ حياته العملية معلما للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق، ثم انتقل الى الكويت عام **١٩٥٦** حيث عمل مدرسا للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية. وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة، كما بدأ انتاجه الادبي في الفترة نفسها.

* انتقل الى بيروت عام ١٩٦٠، حيث عمل محررا ادبيا لجريدة «الحرية» الاسبوعية، ثم اصبح عام **١٩٦٣** رئيسا لتحرير جريدة «المحرر»، كما عمل في «الانوار» و«الحوادث» حتى عام **١٩٦٩** حين اسس صحيفة «الهدف» الاسبوعية وبقي رئيساً لتحريرها حتى استشهاده في ٨ تموز (يوليو) **١٩٧٢**.

* يمثل كنفاني نموذجا خاصا للكاتب السياسي والروائي والقاص والناقد، فكان مبدعا في كتاباته كما كان مبدعا في حياته ونضاله واستشهاده. وقد نال عام **١٩٦٦** جائزة «**اصدقاء الكتاب في لبنان**» لافضل رواية عن روايته «**ما تبقى لكم**»، كما نال جائزة **منظمة**

الصحافيين العالمية (.I.O.J) عام ١٩٧٤، ونال جائزة «**اللوتس**» التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وافريقيا عام ١٩٧٥.

مؤلفاته:

* موت سرير رقم ١٢ (قصص) ١٩٦١، * ارض البرتقال الحزين (قصص) ١٩٦٢، * رجال في الشمس (رواية) ١٩٦٣، * الباب (مسرحية) ١٩٦٤، * عالم ليس لنا (قصص) ١٩٦٥، * ادب المقاومة في فلسطين المحتلة (دراسة) ١٩٦٦، * ما تبقى لكم (رواية) ١٩٦٦، * القبعة والنبي (مسرحية) ١٩٦٧، * في الادب الصهيوني (دراسة) ١٩٦٧، * عن الرجال والبنادق (قصص) ١٩٦٨، * الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (دراسة) ١٩٦٨، * ام سعد (رواية) ١٩٦٩، * عائد الى حيفا (رواية) ١٩٦٩، * العاشق (رواية غير كاملة) بدأ بكتابتها عام ١٩٦٦، * الاعمى والاطرش (رواية غير كاملة)، * برقوق نيسان (رواية غير كاملة) ٧١ ـ ٧٢، * جسر الى الأبد (مسرحية)، ١٩٦٥ * المقاومة ومعضلاتها (دراسة) ١٩٧٠ * ثورة ٣٦ ـ ٣٩ في فلسطين (دراسة)، ١٩٧٢.

بالاضافة الى مجموعة اخرى من الروايات والدراسات السياسية والفكرية والتاريخية والنقدية التي لم تنشر في كتب. منها: *الشيء الآخر، او «من قتل ليلى الحايك؟» (رواية) نشرت على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٦ * اللوتس الاحمر الميت (رواية)، ١٩٦١ * ثم اشرقت آسيا، (كتاب عن رحلة الى الصين) نشر على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٥ * ترجمة «صيف ودخان» لتينيسي وليامس ١٩٦٤.

تمهيد

«لم اعد اشك في ان الله الذي عرفناه في فلسطين قد خرج منها هو الآخر، وانه لاجىء في حيث لا ادري».

هذا هو صوت الاطفال الذين يخرجون من «**ارض البرتقال الحزين**» الى حيث لا يدرون، حيث التشرد والذاكرة التي تفتك بالجسد والصراخ الذي يسبق الفعل. كأن مجموعة غسان كنفاني القصصية الثانية بدأت تكتشف مذاق فلسطين في هذا الوجع الذي لاينتهي، في هذه الذاكرة المأساوية التي تمتزج بواقع جديد هو واقع اللجوء والتشرد، فينتج عن هذا الامتزاج شروخ في الوعي، ويبدأ الوعي الفلسطيني محاولاته من اجل تلمس طريقه.

«**ارض البرتقال الحزين**» ترسم في قصصها المختلفة الاوجه المتعددة لمأساة الفلسطيني، كأنها تريد من القصة ان تكون مرآة الواقع والذاكرة، ومن اللغة ان تكون مجموعة من الانحناءات المتعددة امام الالم الانساني الذي يتجسد في هذه المرآة.

في قصص هذه المجموعة تبرز فلسطين بأوجهها المتعددة:

فلسطين المأساة اليومية التي يعيشها اللاجىء كما في قصة «ابعد من الحدود»، حيث يتم تحويله من انسان الى حالة، وفلسطين الذاكرة المكسورة كما في قصة «الافق وراء البوابة»، فتصير بوابة مندلبوم مكاناً للانكسار الداخلي، وفلسطين «السلاح المحرم»، حيث لا يكون السلاح ولا تكون امكانية الاستيلاء عليه.

هذه الاوجه الفلسطينية الثلاثة سوف تتكثف في «ثلاث اوراق من

فلسطين»، حيث تستعاد فلسطين بصور نضالاتها قبل الاحتلال الصهيوني، وترتفع نبوءة كنفاني عن نفسه ومصيره الشخصي في صورة حمد الحنيطي الذي فجّر اللغم بنفسه وباعدائه: «وتطايرت اشلاء اليهود وتمزع الشهيد الى درجة انهم لم يستطيعوا ان يجدوا اي شيء منه ليدفنوه». وتصل الرؤية النضالية الى اعقاب بداياتها في قصة «ورقة من غزة»، حين يصبح اختيار الهجرة مستحيلا.

«**ارض البرتقال الحزين**»، هي محاولة كنفاني الثانية لتأسيس رؤيته الابداعية للافق الفلسطيني الذي يسعى الى رسمه بكلماته. والافق يأتي ممتزجا بالذاكرة، كأن الفلسطيني لا يستطيع ان يتحرر من ذاكرته في لحظات الذهول امام المأساة، او كأن هذه الذاكرة ستكون البوابة التي سيعبر منها الى حيث يكتشف الطريق الوحيد الممكن الى ذاته.

لذلك تبدو القصة القصيرة هنا وكأنها لحظات من واقع كبير، كأنها مقاطع لرواية لم تتكامل، او كأنها ايقاعات تفصيلية لفصل يستجمع نفسه قبل ان يبدأ. كأن القصة القصيرة عند كنفاني هي لحظة تحاول تلخيص علاقات متشابكة، فتصبح الكتابة عن فلسطين بحثا عن الطريق الموصل اليها.

نشرت «**ارض البرتقال الحزين**» للمرة الاولى في بيروت عام ١٩٦٢، وترجمت بعض قصصها الى الانكليزية والالمانية والنرويجية والسويدية. وستنشر هذه المجموعة، الى جانب عدد من روايات كنفاني وقصصه باللغة الدانمركية، كما ستنشر سبع قصص مختارة من هذه المجموعة باللغة البولندية.

الناشر

إلى من استشهد في سبيل
أرض البرتقال الحزين ...
وإلى من لم يستشهد بعد ..

غسان كنفاني

المحتويات

أبعد من الحدود

صعد الرجل الهام الدرجات القليلة إلى بيته، فتح له الباب، ألقى محفظته الجلدية فوق الطاولة، قبل زوجته، نظر الى طفله النائم في الحرير الأزرق، فك رباط عنقه، ساعده الخادم على خلع حذائه، أخذت زوجته المعطف، علقته على المشجب، فرك يديه مستمتعاً بالدفء..

ـ أتريد أن تتناول عشاءك الآن؟

ـ أوه نعم، أنا جائع جداً..

استدارت زوجته ذاهبة الى خارج الغرفة، رغرغ الصغير في حريره الأزرق، أصوات الصحون تأتي اليه مخدرة من وراء باب غرفة الطعام، ثم صوت زوجته:

ـ هل مسكتموه؟

ـ من ؟

ـ الشاب الذي قفز من النافذة أثناء التحقيق..

ـ ليس بعد ولكن أين يريد أن يفر؟ سيكون مآله الينا بين ساعة وأخرى..

ـ ماذا كانت جريمته بالضبط؟

ـ من أين لي ان أدري؟ لقد طلب مقابلتي ثم هرب..

قام عن الكرسي الوثير، انتعل شحاطته ذات الفرو، اجتاز الباب الى غرفة الطعام، جلس في كرسيه المفضل، قرّب وجهه من صحن الحساء واستمتع بالبخار المتصاعد منه..

ـ هذا الحساء ساخن جداً، سيحرقني.

ـ عليك ان تنتظر برهة..

ـ أنا مرهق جداً اليوم.

تراخى في كرسيه وأحس بثقل يتمدد في جفنيه، سمع صوت شباك ينغلق بعنف، زوجته تنسى دائماً شباك الحمام مفتوحاً فتلعب به الريح.. أحس برغبة جامحة في النوم.. كيف استطاع ذلك الشقي أن يثب من الشباك دون أن يؤذي نفسه؟ كلهم شياطين مجرمون..

ـ «سوف القي خطاباً أمامك»

سمع هذه الجملة بوضوح فحاول أن يرفع رأسه، إلا أنه كان مستمتعاً بالدفء والنعاس، سأل نفسه: تراه من يكون؟

ـ «الشاب الذي هرب من النافذة، عاد من النافذة يا سيدي!»

ومرة أخرى لم يشأ أن يرفع رأسه رغم أنه أحس بشيء من الرعب... كان بخار الحساء ما زال يتصاعد فيحمل الى وجهه نكهة رطوبة دافئة، قال لنفسه «لا شك أنهم أمسكوا ذلك الشاب.. أنا أفكر به الآن لأن حاستي السادسة نامية، أنا أثق بها»..

ـ«لن تقاطعني يا سيدي، أليس كذلك؟ أريد أن ألقي خطاباً»

- «لا ، لن أقاطعك»

لم يعد بوسعه، الآن، أن يفتح عينيه ورغم ذلك فهو لم ينم بعد . . انها اللحظات القليلة العائمة التي تسبق النوم مباشرة، هكذا فكر، انه يعرف جيداً هذه اللحظات، ويمتصها، نصف واع، حتى الثمالة . .

-«إسمح لي يا سيدي أن ارتجف أمامك ريثما يبرد الحساء، أنت لن تمنعني من الارتجاف، أليس كذلك؟ انه حق ما زال متوفراً لي حتى الآن . . شيء مؤسف ولكنه حقيقة واقعة . . ان رجالك لا يستطيعون أن يمنعوني من ذلك، اعتقد أنهم يرغبون في ذلك . . أليس الارتجاف حركة؟ ولكن كيف يتعين عليهم أن يفعلوا؟ ايعطونني معطفاً؟ كيف؟ يعطون الخنزير معطفاً؟»

هز رأسه في محاولة عنيفة لابعاد الصوت الحاد إلا أن الحروف كانت تتكلب في صدغية كالعلق . .

- «لا يا سيدي، لا تحاول أن تستدعي كاتبك ليحمل لك الملف الذي يحتوي على كل التفاصيل الهامة وغير الهامة لحياتي . . تريد أن تعرف شيئاً عني؟ هل يهمك ذلك؟ احسب على أصابعك إذن : لي أم ماتت تحت أنقاض بيت بناه لها أبي في صفد، أبي يقيم في قطر آخر وليس بوسعي الالتحاق به ولا رؤيته ولا زيارته، لي أخ، يا سيدي، يتعلم الذل في مدارس الوكالة، لي أخت تزوجت في قطر ثالث وليس بوسعها أن تراني أو ترى والدي، لي أخ آخر، يا سيدي، في مكان ما لم يتيسر لي أن أهتدي اليه بعد . . تريد أن تعرف جريمتي؟ هل يهمك حقاً أن تعرف أم أنت فضولي بريء يا سيدي؟ لقد سكبت دون أن أعي، كل

محتويات وعاء الحليب فوق رأس الموظف وقلت له انني لا أريد بيع وطني.. في لحظة جنون أم لحظة عقل، لا أدري... لقد وضعوني في زنزانة سحيقة العمق لكي أقول انها لحظة جنون.. ولكنني، في تلك الزنزانة، تيقنت أكثر من أية لحظة مضت بأنها كانت لحظة العقل الوحيدة في حياتي كلها...

هذا صوت أسناني تصطك من شدة البرد يا سيدي، لا تخف أنا لا أحمل سلاحاً اذا كنت تعتقد أن أسناني ليست سلاحاً، إن ساقي عاريتان ممزقتان لانني قفزت من نافذتك، وقد خطرت لبالي فكرة صغيرة وأنا أمعن في الركض مبتعداً عن غرفتك وحرسك وهي أن هذا الدم الذي سال من ساقيّ قد تفجر من جروح هي أوّل جروحي، وان ذلك، للعجب، لا يحدث على الحدود. ولا أريد أن أخفي عنك شيئاً، يا سيدي.. لقد بعث ذلك فيّ شيئاً يشبه الخجل ولكنه كان خجلاً حزيناً بائساً ما لبث أن صار دمعاً.. ويبدو أن ذلك الخجل هو الذي دفعني لأعود اليك من النافذة، أم تراني عدت لأن كلمتك الأخيرة، التي سمعتها وأنا أثب من النافذة وكانت آخر ما سمعت منك، ما تزال تنخر في رأسي كالمثقب: كلمة ناشفة انهمرت ورائي وأنا أقفز: «الخنزير.. امسكوه»!

يا سيدي، أنا إذن خنزير حقير.. أتسمح لي أن أكونه؟ أنا لست أشعر ذلك إذا أردت الصدق.. ولكن لو قلت الصدق هذا، بصوت أعلى، إذن لزجوا بي في السجن. وإذا أغلقوا وراء ظهري المزلاج فمن يستطيع أن يفتحه؟ أنت؟ ولا حتى من هو أعلى منك قيمة ومركزاً.! أتعرف لماذا يا سيدي؟ لأنني، في الواقع، لست إلا تجارة من نوع نادر،

فأنت ستسأل نفسك إذا قدر لك أن تسمع بالخبر: «. . . وماذا سأستفيد من إطلاقه؟» والجواب بكل بساطة: «لا شيء!» فأنا لست صوتاً انتخابياً، وأنا لست مواطناً، بأي شكل من الأشكال، وأنا لست منحدراً من صلب دولة تسأل بين الفينة والأخرى عن أخبار رعاياها. . وأنا ممنوع من حق الاحتجاج، ومن حق الصراخ فماذا ستربح؟ لا شيء. . وماذا ستخسر إذا بقيت انا وراء المزلاج؟ لا شيء أيضاً! إذن لماذا التفكير الطويل؟ «خذ هذه الاوراق يا ولد ولا تزعجني بمثلها مرة اخرى!» أرأيت؟ مشكلة لا أبسط ولا أسهل!

لقد فكرت في الامر مطولاً في المدة الاخيرة يا سيدي . . أنت تعرف، لا بد، أن الواحد منا ما زال يستطيع أن يفكر بين الفينة والاخرى. . لقد كنت ماشياً في الشارع وفجأة سقطت الفكرة في رأسي كلوح زجاج كبير ما لبث أن تكسّر وأحسست بشظاياه تتناثر في جسدي من الداخل. . قلت لنفسي: «أوف. . ثم ماذا؟» وأنت ترى، إنه مجرد سؤال صغير يمكن للمرء أن يطرحه ولو بعد خمس عشرة سنة. . ولكن العجيب هذه المرة أن السؤال كان صلباً وناشفاً وأكاد أقول نهائياً. . اذ انه، فور أن سقط في رأسي، انفتح خندق مظلم طويل بلا نهاية. . . وقلت لنفسي: «لا بد ان أكون موجوداً رغم كل شيء. . لقد حاولوا ان يذوبوني كقطعة سكر في فنجان شاي ساخن. . وبذلوا، يشهد الله، جهداً عجيباً من أجل ذلك. . ولكنني ما أزال موجوداً رغم كل شيء. .» الا أن السؤال كان ما يزال يعوي: «ثم ماذا؟» هذا النوع من الاسئلة يا سيدي عجيب للغاية، ذلك أنه اذا ما أتى لن يكون بوسعه أن يبرح قبل أن يروي ظمأه تماماً!

نعم، ثم ماذا؟ دعني اقول همساً: يبدو ان ليس ثمة «ثم ماذا» ابداً.

دعني اقول ذلك، ثم قولوا عني انني يائس جبان هارب. . قولوا عني حتى إنني خائن! ليس بوسعي ان اكتم الجواب اكثر. . ان الحقيقة يا سيدي مروّعة، وهي تملؤني بغزارة حتى لأحسّ بأنني، ذات يوم، قد أنفجر من فرط ما عبأتني. . أتسمع يا سيدي؟ ليس ثمة «ثم ماذا» على الاطلاق. . وتبدو لي حياتي، حياتنا كلنا، خطاً مستقيماً يسير بهدوء وذلة الى جانب خط قضيتي. . ولكن الخطين متوازيان، ولن يلتقيا. . يا سيدي!

إن كنت أنا قد جمعت طوال فترة قاسية شجاعة خارقة لأقرر هذه الحقيقة، فان الشرف كله ليس لي، انا لي شرف القول فقط وانتم تحتفظون بكل شرف التأليف. . ألست ترى أنكم انتم الذين اعددتموني ساعة اثر ساعة ويوماً اثر يوم وعاماً اثر عام لهذه النتيجة؟

لقد حاولتم تذويبي يا سيدي! حاولتم ذلك بجهد متواصل لا يكل ولا يمل يا سيدي. هل اكون مغروراً فأقول بأنكم لم تفلحوا؟ بلى! افلحتم الى حد بعيد وخارق، الست ترى انكم استطعتم نقلي، بقدرة قادرة، من انسان الى حالة؟ انا اذن حالة. . لست اعلى من ذلك قط، وقد اكون ادنى. . ولأنني حالة، لاننا حالة، فنحن نستوي بشكل مذهل! انه عمل رائع يا سيدي، عمل رائع جداً رغم انه احتاج الى فترة طويلة، ولكن يا سيدي، ان تذويب مليون انسان معاً، ثم جعلهم شيئاً واحداً متوحداً ليس عملاً سهلاً، ولذلك اعتقد انك تسمح له ان احتاج ذلك الوقت الطويل. . لقد افقدتم اولئك المليون صفاتهم الفردية المميزة. . ولستم في حاجة، الآن، الى تمييز وتصنيف، انتم الآن امام حالة. . فاذا خطر لكم ان تسموها لصوصية، فانهم لصوص. . خيانة؟ كلهم، اذن، خونة! فلماذا الارهاق والتعب

والنظرات البشرية المعقدة؟

سيدي . . لا تتعجل على فهمي البطيء، انا اريد ان اقول ايضاً انهم من ناحية اخرى، «حالة تجارية» . . انهم، اولاً، قيمة سياحية، فكل زائر يجب ان يذهب الى المخيمات، وعلى اللاجئين ان يقفوا بالصف وان يطلوا وجوههم بكل الاسى الممكن، زيادة عن الاصل، فيمر عليهم السائح ويلتقط الصور، ويحزن قليلاً . . ثم يذهب الى بلده ويقول: «زوروا مخيمات الفلسطينيين قبل ان ينقرضوا» ثم انهم، ثانياً، قيمة زعامية، فهم مادة الخطابات الوطنية واللفتات الانسانية والمزايدات الشعبية . . وانت ترى، يا سيدي، لقد اصبحوا مؤسسة من مؤسسات الحياة السياسية التي تدر الربح يميناً ويساراً!

سيدي، ليس هناك اي «ثم»! هذه حقيقة مروعة، ولكنها حقيقة على اية حال . . لقد تقولب دوري في الحياة بشكل حاسم . انا، كفرد، مجرد خنزير، وانا، كجماعة، حالة ذات قيمة تجارية وسياحية وزعامية . . لقد فكرت طويلاً قبل ان اصرح بهذا الاكتشاف، وانا اعرف بأن المنابر ستمتلىء بمن يقول: هذا خائن جبان متخاذل هارب، لا بأس، لن ينالني العار اكثر مما نالني، وبعد خمسة عشر عاماً لا بأس ان تكونوا كلكم زعماء الاخلاص ورجال المعركة والابطال الصناديد الذين لا ييأسون ولا يهربون . . .

سيدي! إن مؤسستنا تقدم خدمات اخرى لا يحصيها العد . . . نحن مثلاً اكثر جماعة ملائمة من اجل ان تكون مادة درس للبقية . . الاحوال السياسية مستعصية صعبة؟ اذن، اضرب المخيمات! اسجن بعض اللاجئين، بل كلهم ان استطعت! اعط مواطنيك درساً قاسياً

دون ان تؤذيهم . . ولماذا تؤذيهم اذا كان لديك جماعة مخصصة تستطيع ان تجري تجاربك في ساحاتها؟

اريد ان الفت نظرك يا سيدي الى امور كثيرة اخرى، انت تستطيع ان تؤكد ولاء مواطنيك عن طريق الادعاء بأن المتذمرين انما هم بعض الفلسطينيين، وإذا فشل مشروع من مشاريعك فقل ان الفلسطينيين سبب ذلك الفشل، كيف؟ انه امر لا يحتاج الى تفكير طويل، قل انهم مروا من هناك مثلاً . . او انهم رغبوا في المشاركة . . او اي شيء آخر، إذ ما من أحد سينبري لمحاسبتك . . ولماذا ينبري؟ من يملك، بعد خمسة عشر عاماً، جرأة التطويح بنفسه في القضاء دون هدف؟

يا سيدي، انت ترى، نحن رحمة احياناً . . انت تستطيع ان تشنق واحداً منا فتربي بجسده الميت الفاً من الناس دون ان تحمل هماً او خوفاً او تأنيب الضمير . . الا اننا يا سيدي، نقمة في كثير من الاحيان، نحن لصوص، نحن خونة، نحن بعنا ارضنا للعدو . . ونحن طماعون، طماعون نريد ان نمتص كل شيء هنا، حتى التراب . .

هذا هو الدور الذي رسم لنا . . وعلينا ان نقوم به شئنا ام ابينا . . ولكن، يا سيدي، هنالك مشكلة بسيطة تؤرقني واشعر ان لا بد لي من قولها . . ان كثيراً من الناس، اذا ما شعر انه يشغل حيزاً في المكان، يبدأ بالتساؤل، «ثم ماذا؟» وابشع ما في الامر انه لو اكتشف بأن ليس له حق «ثم» ابداً . يصاب بشيء يشبه الجنون، فيقول لنفسه بصوت منخفض: «اية حياة هذه! . الموت افضل منها» ثم، مع الايام يبدأ بالصراخ: «اية حياة هذه! الموت افضل منها» والصراخ، يا سيدي عدوى، فاذا الجميع يصرخ دفعة واحدة: «اية حياة هذه! . الموت

افضل منها» ولأن الناس عادة لا يحبون الموت كثيراً فلا بد ان يفكروا بأمر آخر.

سيدي..

اخشى ان يكون حساؤك قد برد، فاسمح لي ان انصرف!»

... ١٩٦٢

الافق وراء البوابة

- ١ -

قبل ان يصل الى رأس السلم وقف ليلتقط انفاسه. . لا، لا يمكن ان يكون مرهقاً الى هذا الحد. . انه يعرف جيداً انه ليس مرهقاً ابداً. . لقد انزلته السيارة على باب الفندق، ثم انه لا يحمل سوى سلة صغيرة والسلم لم يكن طويلاً كما تصور. . ولكن هذه الدرجات الثلاث الاخيرة هي التي تحطمه دائماً وتذوّب ركبتيه وتهدم اصراره. .

وضع السلة على السلم واتكأ بكتفه الى الحائط. . هل يعود ادراجه؟ بدا له السؤال عجيباً ولكنه لم يستطع ان يتخلص منه، كان يدق في رأسه كالناقوس. . . هل اعود؟ وفي دوامة التردد التي اخذت تطوّف في عروقه تذكر فجأة انه كان قد وقف نفس هذه الوقفة قبل عامين وسأل نفسه ذات السؤال، وبعد لحظة واحدة كرّ عائداً الى السيارة، ثم غادر القدس. . هل يعود ادراجه الآن مرة اخرى؟ مدّ كفه الى السلة فقبض على ذراعها بعنف واندفع الى فوق كأنه يقتلع نفسه اقتلاعاً من بحيرة طين. .

لا! هذه المرة لن اعود! انه من العار ان اكون جباناً الى هذا الحد. . لقد حملت على كتفيّ قدراً قميئاً ثقيلاً طيلة عشر سنوات طويلة. . وعليّ الآن ان اغسله في ظل بوابة مندلبوم، التي ترتفع فاصلاً من حجارة بين

الارض المحتلة والارض الباقية . .

لا ، هذه المرة لن اعود . . يجب ان اضع حداً للكذب الطويل الذي مارسته مختاراً او مرغماً، لست ادري ، طوال عشر سنوات . .

حين وصل قبل عامين الى القدس كان قد عقد عزمه على ان يقابل امه ويقول لها كل شيء . . ولكنه في لحظة وقوفه على سلم الفندق شعر بأنه لن يستطيع ان يمسح الكذب الطويل الذي ساقه على أمه عندما كان يراسل الاذاعة قائلاً: «انا ودلال بخير، طمنونا عنكم . . » لقد نمت الكذبة طيلة هذه السنوات العشر نمواً فظاً حتى انه لم يجد مبرراً ليقول الحقيقة مرة واحدة حاسمة وقاسية وربما قاتلة ايضاً . . ولذلك فضل يومها ان يكف عن صعود السلم ، وكرّ عائداً الى السيارة . . وما من شك في ان امه قد قضت طيلة ذلك الصباح واقفة في حلق البوابة تتطاول بعنقها باحثة بين الجموع. وما من شك في انها اصيبت بخيبة امل مريرة وفاجعة . . ولكن ذلك كله يبقى اسهل بكثير من ان يقف امامها، هناك، بعد عشر سنوات ، ليقول لها الحقيقة القاتلة . .

استلقى في سريره وصالب ذراعيه تحت رأسه . . كانت العتمة قد بدأت تبسط كفها فوق المدينة النائمة ولم يكن ثمة في الغرفة الا فكرة واحدة حاسمة: لا بد من الذهاب غداً الى مندلبوم . !

وغداً سوف تلوّح له بكفها المعروقة وسوف تندفع اليه بشعرها الاشيب ووجهها العجوز المبتل بالدموع، سوف تنهمر فوق صدره وترجف كما يرجف طير صغير على وشك ان يموت ، سوف تمرغ رأسها المكدود على وجهه دون ان تجد الكلمة التي تستطيع ان تشحنها بحبها المخذول فماذا عساه يقول لها وهي تخفق فوق صدره كالقلب الذي

يخفق في صدره؟ من اين يتوجب عليه ان يبدأ؟

تقلب في فراشه وخيل اليه انه يسمع وجيب قلبه يضرب في جسده كله كالوتر المشدود ، سوف يبدأ من البدء، منذ ان غادر يافا الى عكا ليرى الفتاة التي كانت امه تزمع ان تخطبها له: انه يذكر تلك اللحظة بكل دقائقها، كيف وقفت أمه على السلم تدعو له بالخير والتوفيق، وكانت خالته تقف الى جانبها تشير له مطمئنة، هو يعرف انها ستلازمها طيلة فترة غيابه، وكان يشد على ذراع اخته دلال التي رغبت في مرافقته، فتاة غضة في العاشرة من عمرها تغادر الدار مع اخيها لاول مرة في حياتها.

ولكن الامور جرت على غير ما اشتهى وغير ما اشتهت فبعد ان غادر يافا بأيام قليلة انقطع الطريق واستحالت العودة، لقد عانى كثيراً من القلق في تلك الايام السوداء التي امضاها بعيداً عن امه، ليس بسببه هو ولكن بسبب دلال التي تعني لامه كل شيء في البيت، هي التي تعطي المرأة العجوز نكهة الحياة حين يكون الموت في الجوار، وهي التي تعني الحياة كلها حين تعني الاشياء كلها الموت.

لا . . هذا القسم من القصة لم يهم امه بأية حالة، انها تريد بلا شك ان تعرف اموراً أكثر غموضاً من هذا الجزء من القصة.

ومرة اخرى تقلب في فراشه محتاراً، كانت الغرفة تنوس بضوء شاحب مريض، وكانت السلة الصغيرة تتكىء على الجدار مثل شيء حي، لماذا لا يبدأ بالقصة من نهايتها؟ لماذا لا يحكي لها كيف دخل اليهود عكا وكيف جرت الأمور بعد ذلك؟

كان في الغرفة حين تفجرت جهنم في وجهه. . ارتد مع من ارتد حين بدا الظلام يطوي عكا، قاءت بندقيته القصيرة كل ما في جوفها ثم تحولت الى عصا، مجرد عصا ناشفة لا تصلح لشيء، ذهب الى غرفته وعانق دلال، كانت تبكي في ظل الرعب الذي خيّم فوق المدينة، وقبل ان يعي، كانت الاكتاف قد انهدت فوق الباب، وانفتح رشاش ثرثار فزرع في الغرفة رصاصاً كالمطر، ثم انكشف الدخان عن اربعة رجال يسدون امام عينيه باب الغرفة الخشبي، ولكنه لم يتحرك، كانت دلال ترتعش في دمها بالخفقات الاخيرة من انفاسها، وعندما شدها الى صدره كأنه يريد ان يسكب فيها قلبه ودمه، حدّقت اليه ثم رفعت حاجبيها لتقول شيئاً ولكن الموت سد الطريق امام الكلمة.

هل بكى؟ انه لا يذكر شيئاً الآن، كل الذي يذكره انه حمل اخته القتيل بين ذراعيه وانطلق الى الطريق يرفعها أمام عيون المارة ليستجدي دموعهم كما لو ان دموعه وحدها لا تكفي، ليس يدري متى تيسر للناس ان ينتزعوا الجسد الميت من بين ذراعيه، ولكنه يعرف انه حين فقد اخته الميتة، حين ضيع جسدها البارد المتصلب، احسّ بأنه فقد كل شيء: ارضه واهله وامله، ولم يعد يهمه ان يفقد حياته ذاتها، ومن هنا مضى يضرب في الجبال، تاركاً أرضه، هارباً من القدر الذي لاحقه كالسوط.

لو قال ذلك كله لانمحت الاكذوبة الكبرى التي بناها في عشر سنوات، ستصير امه في تلك اللحظة تعرف ان دلال قد ماتت، منذ عشر سنوات وان ابنها قد كذب عليها طويلاً حين دأب على تكرار تلك الجملة الباردة عبر اسلاك الاذاعة: «انا ودلال بخير طمنونا عنكم».

نهض الى النافذة ففتح الستائر القاتمة واخذ يحدق الى الطريق. .

يجب ان يحررها من الكذبة ويحرر نفسه من القدر الاسود الذي حمله وحيداً، يجب ان يقول لها ان دلال مدفونة هناك، وان قبرها الصغير لا يجد من يضع عليه باقة زهر في كل عيد، وانها، امها، على بعد اشبار من قبر عزيز لا يتيسر لها ان تزوره.

- ٢ -

كان اللقاء في ظل البوابة الكبيرة باكراً صباح اليوم التالي، لم ير عليّ امه فيما كان يتفرس بالوجوه، خالته فقط كانت هناك، لم يعرفها بادىء الامر، لكنها عرفته واستطاعت ان تدله على مكانها بين الجموع، وفي غمرة اللقاء سألته السؤال الذي أتى خصيصاً ليجيب عليه:

اين دلال؟

وفي العينين الصغيرتين المترقبتين ذاب كل الاصرار الذي حمله معه، كأن قوة خفية تمسكت بحلقه واخذت تهزه بلا هوادة:

- ولكنك لم تقولي لي اين امي؟

وتلاقت العيون مرة اخرى، نقل عليّ السلة من يد الى اخرى وحاول ان يقول شيئاً، ولكن حلقه كان مسدوداً بغصة عريضة كأنها نصل معقوف، مدت خالته يدها فوضعتها فوق ذراعه، وأتاه صوتها مشحوناً بأسى لا يصدق:

- اين دلال؟

- دلال؟

ومرة أخرى احس بالضعف يأكل ركبتيه وبدا كأنه يدفع عن نفسه احساساً بالاغماء، رفع يده ومد السلة باتجاه خالته :

- خذي هذه السلة لأمي، فيها بعض اللوز الأخضر..

ولم يستطع ان يكمل، كانت نظرة فاجعة قد انسكبت من عينيّ المرأة العجوز، وبدأت شفتها ترتجف، نظر وراء كتفها واكمل بوهن :

- .. كانت تحبه.

وفي فترة الصمت الواسعة التي انفتحت بينهما كالقبر احس برغبة هائلة تدفع به الى الفرار وكانت خالته تدوّر اصابعها في الحقيبة الصغيرة التي وضعت فيها رداء دلال الاخضر، كان احساس مباشر يصل بين صدريهما، هي واقفة هناك تأتلق عيناها بدمع صامت وهو يحس النصل اللامع يجرح حلقه، مد يده ورفع اليه وجهها ثم انتشل نفسه بسؤال خافت :

- كيف تركت يافا؟

حاولت خالته ان تقول شيئاً ولكنها لم تستطع، تزاحمت سيول من الكلمات في حنجرتها فسكتت وابتسمت ابتسامة باهتة لا معنى لها، ثم مدت يدها الراجفة تمسح على كتفه بحنو كسيح فيما اخذ هو ينظر بهدوء الى الأفق الذي يقع خلف بوابة مندلبوم.

الكويت - ١٩٥٨

السلاح المحرم

- ١ -

بدأت القصة كما يلي: كان أبو علي عائداً إلى داره، لقد أقفل دكانه قبل المغيب بسبب توعكه واراد ان يذهب الى البيت فيستريح على الكرسي الصغير امام الباب قبل ان يتناول عشاءه ويأوي إلى فراشه، ليس يدري سبباً لتلك الوعكة، ربما كان الغداء الذي حمله معه في الصباح بعد ان وضعته ام علي في طاسة نحاسية كبيرة قد فسد، لأنه من طبخ امس، ربما كان الطقس الذي يتباين بين ساعة واخرى هو السبب، وعلى اي حال فضل ابو علي أن لا يبقى في الدكان، واذا كان لا بد من حدوث اي حادث، لا سمح الله، فليكن اذن بين الأهل، بين ذراعي ام علي، وعلى مرأى من علي.

هذا هو السبب الذي جعله يمر بساحة القرية في ذلك الوقت بالذات، ولو لم يصبه التوعك اذن لما كان مر من هناك، واذن لما حدثت القصة كلها..

على بعد خطوات منه في الطرف الآخر للساحة المبلطة، كان بعض شباب القرية ورجالها يلتفون حول شيء ما بصورة دائرية ملتحمة، لقد حاول ابو علي ان يخمن الحقيقة من مكانه، الا انه لم يفلح، لو كان الامر عادياً اذن لما وقف عبد الله الى جانب فاروق، فانهما يكرهان بعضهما

كراهية مقيمة، لا بد اذن ان يكون الأمر خطيراً، وهنا ايضاً، لو لم يسيطر عليه الفضول، لما حدثت القصة كلها، ولكنه غير اتجاهه وسار، رغم توعكه، الى حلقة الرجال يستطلع الخبر، وقبل ان يصل اليها تماماً شاهد، من بين الاكتاف المتمايلة، سيارة جيب يقف الى جانبها جندي اجنبي بلباس الميدان الكاملة معلقاً على كتفه بندقية جديدة.

وتذكر ان هذا الجندي كان قد أتى مراراً الى القرية بغية ان يقيم فيها، الا ان اهل القرية كانوا يرفضونه دائماً، ليس لشيء آخر الا لأنه كان يحمل معه سلاحه، وكان اهل القرية يقولون ان السلاح بيد الانسان اغراء للقتل، ومن الذي يستطيع ان يضمن هذا الجندي فلا يطلق الرصاص ذات يوم على الناس اذا ما داعبه غرور التفوق والمقدرة؟ الرصاص يجب ان لايطلق على الناس، الرصاص يجب ان يطلق على الضباع، كان هذه هي الفكرة التي قادته الى الحلقة، وفي تلك اللحظة بالذات فهم كل شيء، ورغم ذلك، فقد بادر اقرب الناس اليه بالسؤال كأنه يريد ان يبرر انضمامه الى الحلقة:

ـ ماذا يحدث هنا؟

قال الرجل الواقف الى جانبه:

ـ لقد ذهب الضابط الى بيت المختار وبقي الجندي واقفاً هنا.

ـ اذن لقد احضر الضابط معه؟

ـ نعم، ذهب يتحدث الى المختار. . عله يقبل هذه المرة. .

ـ وانتم؟

ـ الرجال يريدون خطف بندقيته.

اندس في الصف فوسع له الرجال موطىء قدميه، الا انه خطا الى الامام ودافع الرجال بكتفيه وكفيه حتى صار في الصف الامامي، وصار الجندي امامه مباشرة على بعد ثلاثة او اربعة امتار، ومن مكانه ذاك استطاع ان يقيس البندقية، انها من طراز حديث، مشطها يتسع لثماني طلقات، وتبدو جديدة لا مجروحة ولا صدئة، وقال في نفسه ان ثمنها لا بد وان يكون فوق المئة جنيه.

قال للرجل الواقف الى جانبه:

ـ من الذي يريد خطفها؟

ـ لم يقرر احد بعد، انظر الى عينيه الزرقاوين كيف تغزلان، انه ملعون حذر ككلب الصيد.

فكر ابو علي قليلاً ثم قر قراره فجأة، لقد هبط العزم هبوطاً داوياً في رأسه فنسي وعكته وتذكر شيئاً واحداً فحسب، هو ان هذا الجندي المسلح يجب ان لا يبقى هنا، واذا ما خطفت البندقية منه، فلا بأس ان يبقى، لانه، عند ذاك، لن يختلف عن البقية ولن يكون ذا ضرر قط.. اذن، يجب ان تخطف البندقية، لقد كان القرار نهائياً...

ولكن الأمر لم يكن سهلاً، صحيح ان السكين الطويلة غير مثبتة في ماسورة البندقية الا انها تتأرجح هناك على حزام الجندي واذا اراد ان يصل اليها فانه لا يحتاج الى وقت طويل، ثم ان الضابط قد يرجع بين لحظة واخرى.. ولذلك فالقضية ليست قضية لعب.. واذا اراد المرء ان يقوم بعمل ما فيجب ان يحسب للأمور حسابها من كل الزوايا.

وقبل ان يسوي ابو علي الامور في رأسه، قرر ان يستشير الجماعة، فصاح بأعلى صوته كي يسمعه كل الرجال:

- يا شباب من الذي سيتقدم..؟

الا ان احداً لم يجب، وكل الذي حدث هو ان جميع العيون صوبت اليه، بما فيها تلك العينان الزرقاوان للجندي الواقف في وسط الدائرة. كان خائفاً لأنه كان يعرف ان اية حماقة قد تسبب له نهاية عاجلة على ايدي اولئك الرجال الملتفين حوله كالاسورة.

صاح ابو علي مرة اخرى:

- سأخذها انا يا شباب.

واتاه صوت من طرف الحلقة المقابلة:

- انت سيدها يا ابا علي.

كرر بصوت اعلى كأنما ليبعث الحماس في نفسه:

- سأخطفها منه..

قال نفس الصوت:

- انها حلالك..

صاح مؤكداً:

- انها حلالي، سآخذها..

وفكر قليلاً، ثم نظر حواليه وقال بصوت خفيض:

ـ حين تصير البندقية في يدي وسعوا لي طريق الهرب، واذا حاول ان يلحق بي سدوا الطريق بوجهه.

ـ معقول يا ابا علي، اعتمد علينا.

ـ سأعتمد عليكم..

ثم قال في نفسه: «والآن الى العمل»، وحين نظر الى الجندي وجده يحدق به، وكانت لحظة خوف واحدة ما لبثت ان عبرت بسرعة: انحنى وخلع نعليه ثم سلمهما الى رجل كان يقف الى جانبه دون ان يقول له حرفاً واحداً، لقد بدأ الجد الآن، والنعل لا شغل له الا عرقلة الركض حين يكون الركض في اوجه، شال الكوفية والعقال عن رأسه ثم اسقط العقال في عنقه وربط الكوفية حول خاصرتيه، وانحنى فرفع طرف ردائه وثبته تحت الحزام في وسطه، ذلك حري بأن يعطي اتساعاً لمدى ساقيه حين يبدأ العدو، اما السروال الابيض الطويل الضيق عند رسغي الساقين فانه لن يعوق شيئاً.

على بعد ثلاثة امتار او اربعة كان الجندي الواقف مع بندقيته قد فهم كل ما يجري، الا انه بقي يحدق، دون ان يقدر على عمل ايما شيء.. وكان ابو علي يعرف بأنه لن يستعمل سلاحه الذي، ربما، لم يكن محشواً ايضاً. لقد كان واقفاً هناك بشكل لا يحسد عليه ابداً. غير قادر على اكتشاف ماذا يتعين عليه ان يفعل، مكتفياً بالنظر الى ابي علي وهو يقوم باعداد العدة على اكمل وجه، وحين شبك ابو علي طرف قنبازه الى وسطه رفع الجندي بندقيته عن كتفه، وثبت كتفها على الارض، امامه مباشرة، ثم لف حزامها الجلدي الخشن حول ساقه لفتين محكمتين،

وصفق كعبي حذائه الضخم ببعضهم متفرغاً لمراقبة ابي علي من جديد.

قال ابو علي للرجل الواقف الى جانبه والذي كان قد وضع النعلين تحت ابطيه وشبك اصابعه وراء ظهره:

ـ لقد افسد الامور هذا النحس، انظر ماذا فعل! الملعون يريدني ان اخطفه مع البندقية!.

قال الرجل بهدوء:

ـ فكها من حول ساقه..

ـ كيف؟

ـ اطرحه ارضاً..

الا ان ابا علي لم يعد بوسعه ان يغير رأيه، لقد قطع نصف الطريق تقريباً، ومن العار الآن ان يفك طرف قنبازه عن وسطه ويستعيد نعليه، وكان الجندي ما زال يحدق اليه وشفتاه ترتجفان والخوذة تلمع فوق رأسه المحروق..

فرش ابو علي ذراعيه على وسعهما ودفع الرجال الواقفين حواليه الى الوراء خطوة، ثم اندفع بخطوات ثابتة الى وسط الساحة، كان الجندي قد ادرك ان المعركة قد بدأت فشد كفيه على ماسورة البندقية وادناها من صدره دون ان ينزع بصره عن وجه ابي علي الذي صار امامه مباشرة، على بعد خطوة واحدة فحسب، وقف، ونظر اليه مباشرة في عينيه وخيل اليه ان صوتاً باهتاً قد رجف وراء ظهره صائحاً:

ـ آه يا ابا علي يا سيد الرجال!

مد ذراعيه: صلبتين مستقيمتين، وشدّ كفيه حول ماسورة البندقية فوق كفي الجندي ثم جذب جذبتين خفيفتين ليقيس قوة الجندي، وحين لمس تشبثه بسلاحه شد بعنف، الا ان الجندي قاوم الشد بأن قرب البندقية الى صدره وقد تصلب جسده اكثر فأكثر واحمر وجهه، وحين شد أبو علي بكل قوته انزلق حذاء الجندي على بلاط الساحة ووقع على ظهره، وبسرعة شديدة دور ابو علي البندقية دورتين فانفك حزامها عن الساقين الملوحتين في الهواء، وتلقف البندقية بكفيه الكبيرتين الخشنتين، وبسطها امام صدره محدقاً اليها بجذل، ثم صاح بصوت عال:

ـ وسعوا الطريق يا شباب!

ومن خلال الفرجة الضيقة التي انفتحت في المكان الذي كان يقف فيه انسرب ابو علي بخفة ورشاقة، ثم انغلقت الفرجة بأكتاف الرجال من جديد، فيما كان ابو علي يطوي الازقة الموحلة متجهاً الى داره.

ـ ٢ ـ

ولكن ابا علي لم يصل الى داره.

اخباره واخبار البندقية ضاعت، ولو كان ابو علي رجلاً عادياً والحادث حادثاً عادياً اذن لما اهتم احد قط، ولكن الموضوع هو ان ابا علي ليس رجلاً عادياً، فبيته مترع بزوجه واولاده، وهو رب عائلة مستقيم، ليس ذلك فحسب، بل ان بيت ابي علي هو البيت الاول في

القرية، انه يقع على الحافة الغربية، فوق تلة مزروعة بالزيتون، ولقد كان هناك، منذ وعى الناس هناك، قبل ان يولد ابو علي نفسه، بل قبل ان يولد جده، ولقد توارثوه واحداً عقب الآخر بصمت وانتظام، وارثين معه كل تلك الواجبات التي التصقت بالبيت منذ ان وعى الناس البيت.

كان بيت ابو علي باب القرية وحدّها الغربي، وفي الاحراش الممتدة تحت تل الزيتون كانت تكثر الضباع التي كانت تزحف الى القرية اذا ما اشتد البرد في حمأ الشتاء بحثاً عن الطعام وربما الدفء، وكان بيت ابو علي قد حمل - دون ان يكلف من قبل اي انسان - مهمة صد الضباع في كل شتاء ذلك لانه الحد الفاصل بين الاحراش وبين القرية وقد سلم سكان القرية بذلك لانهم لا يعون متى لم تكن الامور كذلك..

والآن تأتي قصة البندقية من جديد، لقد ارتاح الناس لتلك الصدفة التي جعلت من ابي علي صاحب بندقية جديدة، لقد آن الأوان لابي علي ان يمتلك بندقية يستعيض بها عن الفأس التي كان يستعملها في محاربة الضباع كل شتاء، فالشتاء الآن صار على الابواب؛ ولا بد لابي علي ان يمتلك تلك البندقية.

ولكن الامور لم تسر كما اشتهوا واشتهى، فبعد يومين من الحادث تمكن بعض الضباع من الوصول الى البيت والتحويم حوله طول الليل، وفي لمحة خاطفة تغير كل شيء.

ام علي خافت على اولادها فارسلتهم الى القرية ليكونوا بعيدين عن ذلك الرعب وبقيت هناك تنتحب على زوجها وعلى مصيرها، وكانت

الضباع تتكاثر ليلة بعد ليلة محوّمة حول البيت، مرسلة عواءها الحاد في صمت القرية، باعثة فيها الرعب..

على ان لغز ابي علي لم يكن اقل وطأة، وكانت الاحاديث كلها - في الدواوين المغلقة وفي بيت المختار - تدور حول ابي علي: اين ذهب؟ ماذا حدث له؟ تراه ذهب الى قرية اخرى فباع بندقيته وتزوج امرأة اخرى؟ ام تراه قتل ودفن دون ان يعرف الناس؟

بقيت الاسئلة تدور في اجواء المدينة بلا كلل ولا توقف، حتى أن الامور الاخرى كلها ضاعت في حمأ الشك والتساؤل، لم يعد احد يهتم بموضوع البيت او عائلة ابي علي التي توزعت ازقة المدينة، وحين ذهب علي الى بيت المختار يسأله النصح وجد القاعة مليئة بالرجال الذين كانوا يتصايحون ويناقشون قصة ابي علي بكل دقائقها، وعبثاً حاول أن يصل الى المختار، لقد كان الرجال يسدون عليه طريقه كلما خطا خطوة، واخيراً لم يجد بداً من ان يعود ادراجه الى الطريق.

- ٣ -

ضم ابو علي البندقية الى صدره واخذ يعدو في الازقة الموحلة متجهاً الى داره. كان العرق قد بلل ظهره وصدره وكان يحسه يصفعهما بالبرودة كلما اصطفق الهواء بينهما وبين ثيابه، الا ان ذلك لم يقلل من عزمه على المضي بها الى البيت، كانت ثقيلة، وكان يحس ثقلها يزداد بين ذراعيه كلما دار حول منعطف او عبر قنطرة، وحين بدأ صدره يخفق بسعال

مجروح عميق تذكر انه مريض وانه اغلق دكانه مبكراً كي يستريح من عناء وعكته، ولكنه حين احس الثمن بين ذراعيه: بندقية جديدة ذات مشط يتسع لثماني طلقات، تبسم برضا، وتذكر تلك الليالي الباردة الصامتة التي كان يقضيها جالساً وراء الشباك محدقاً في الظلمة كالقط، حتى اذا ما شاهد شبح الضبع او شم رائحته الكريهة قام اليه خفيفاً محني الظهر وقد تصلبت كفاه على ذراع الفأس، من الباب الخلفي، فيصير الضبع محصوراً في الحديقة الصغيرة غير المزروعة الا بكوخ صغير لايواء الدجاج، ثم يقع العراك، لحظة او لحظتان وتخرج ام علي لتسحب جثة الحيوان الكريه وتقذفه من اعلى التل الى الغابة مرة اخرى.. لا، لن يحدث ذلك مرة اخرى الآن، من النافذة الخشبية سيطلق رصاصة واحدة حين يبدو الشبح المخيف، ولن نخاف الخروج الى الحديقة الجرداء حين تتكاثر الضباع، كما حدث في الشتاء الماضي، لا! ها هي ذي بندقية يتسع مشطها لثماني طلقات.. ضمها الى صدره بحنو دون ان يكف عن الركض بكل ما في وسع ساقيه ان تنفرجا، ورغم لهاثه وسعاله فقد كان يسمع صوت حذاء الجندي الضخم يخفق وراءه غير بعيد، متجاوبة اصداؤه الثقيلة بين جدران الطين الحانية على بعضها فوق رأسه، وفجأة اعترض طريقه شبحان فوقف، وكان صفير لهاثه المبحوح يرتفع وينخفض بانتظام..

ـهاتها.!

قال احد الرجلين بصوت جاف ومدّ ذراعيه باسطاً كفه على وسعها كما لو انه كان يتوقع ان يضع ابو علي البندقية فيها.. الا ان ابا علي ارجع البندقية الى جنبه ووضع كتفه الآخر في الطريق بينها وبين كف

الرجل المبسوطة . . ومنعه لهاثه من الكلام ، بينما كرر الرجل بجفاف :

ـ هاتها . . الا تسمع؟

بلع ابو علي ريقه وقال بصوت واهن :

ـ انها حلالي . .

ـ لقد رأيناك تسرقها . . هاتها . . .

ـ انها حلالي .

ـ هاتها . .

رجع ابو علي الى الوراء خطوة، كان صوت حذاء الجندي قد علا حتى ملأ كل صمت الزقاق .

استطاع ان يميز اصوات خطوات اخرى ترافق الجندي ، ربما يكون الضابط قد انضم الى جنديه ، بل ربما انضم اليهما المختار ذاته ، لعنة الله عليك ، ربما كانت القرية كلها ماضية بملاحقته . .

تلفّت بسرعة الى الوراء ثم عاد يحدق الى الرجلين الواقفين في الظل . .

ـ لقد عرفتكما . . افسحا الطريق ، انهم ورائي .

تقدم احد الرجلين فامسك به من عنقه ، بينما ابعد ابو علي البندقية على مدّ ذراعه الى الوراء ، واحس بأنه على وشك ان يختنق . .

ـ هاتها او خنقناك .

ـ عرفتكما . .

وفكر بوجل: «كيف حدث ان اتفقا معاً رغم كل الكراهية التي يحملانها لبعضهما». ؟ وصاح بكل ما بقي في حنجرته من متنفس:

- عرفتكما، اتركاني..

- اعطنا اياها والا قتلناك..

تلفت ابو علي الى الوراء، وخيل اليه انه رأى أشباحاً تتمايل في اول الزقاق فقام بمحاولة عنيفة للخلاص الا انه لم يستطع ان يتحرك انملة، وكان في الوقت ذاته واثقاً من ان يده القابضة على البندقية لن تفلتها شياطين الارض مجتمعة الا اذا فلتت يده، من اعلى الكتف، معها.. ولذلك وضع كل قوته في صوته:

- ولسوف نموت جميعاً.. اتركاني!

- اعطنا اياها.

- مستحيل.

نظر الرجلان خلفهما، ثم قال احدهما للآخر:

- والآن ماذا؟

اجاب الآخر بسرعة:

- حاول ان توقفهم، تحدث معهم، ابق هنا.

تركه احد الرجلين بينما امسكه الآخر من مؤخرة عنقه ومن ذراعه ودفعه امامه بعنف فانطلق يركض مرغماً تحت وطأة القبضات المتحكمة في عنقه وذراعه.

كان ابو علي مرهقاً، وقد زاد التوقف والرعب من ارهاقه وكانت القبضات تشد على عنقه وذراعه بلا رحمة، ورغم ذلك فقد ميز فجأة بأن الطريق الذي يعدو فيه ليس طريق بيته، حاول ان يلتفت، الا ان قبضة الرجل لم تسمع له. كان يحس بأنه قد استنزف، وان السعال المجروح المنطلق من اعمق اعماق رئتيه سوف ينتزع حنجرته ويلقي بها الى الارض، لا، ليس طريق بيته هذا الطريق.. مرة اخرى حاول ان يتملص او يقف الا ان وطأة القبضتين ازدادت حدة وعنفاً وشراسة، واحس - فيما كان على وشك ان يبكي - بأن لا مناص.

بيروت - ١٩٦١

ثلاث اوراق من فلسطين

أ ـ ورقة من الرملة

اوقفونا صفين على طرفي الشارع الذي يصل الرملة بالقدس، وطلبوا منا ان نرفع ايدينا متصالبة في الهواء، وعندما لاحظ احد الجنود اليهود ان امي تحرص على وضعي امامها كي اتقي بظلها شمس تموز، سحبني من يدي بعنف شديد، وطلب مني ان اقف على ساق واحدة، وان اصالب ذراعي فوق رأسي في منتصف الشارع الترب..

كنت في التاسعة من عمري يومذاك، ولقد شهدت قبل اربع ساعات فقط كيف دخل اليهود الى الرملة، وكنت ارى وانا واقف هناك في منتصف الشارع الرمادي كيف كان اليهود يفتشون عن حلى العجائز والصبايا، وينتزعونها منهن بعنف وشراسة، وكان ثمة مجندات سمراوات يقمن بنفس العملية، ولكن في حماس اشد. وكنت ارى ايضاً كيف كانت امي تنظر باتجاهي وهي تبكي بصمت، وتمنيت لحظتذاك لو استطيع ان اقول لها انني على ما يرام، وان الشمس لا تؤثر في، بالشكل الذي تتصوره هي..

كنت انا من تبقى لها، فأبي قد مات قبل بدء الحوادث بسنة كاملة،

واخي الكبير اخذوه اول ما دخلوا الرملة، لم اكن اعرف بالضبط ماذا كنت اعني بالنسبة لامي، لكنني الآن لا استطيع ان اتصور كيف كانت الامور ستجري لو انني لم اكن عندها ساعة وصلت دمشق، لابيع لها جرائد الصباح وانا انادي وارتجف قرب مواقف الباصات..

لقد بدأت الشمس تذيب صمود النساء والشيوخ.. وارتفعت من هنا وهناك بعض الاحتجاجات اليائسة البائسة، كنت ارى بعض الوجوه التي اعتدت ان اراها في شوارع الرملة الضيقة وتبعث في الآن شعوراً دقيقاً من الاسى، لكنني ابداً لن استطيع تفسير ذلك الشعور العجيب الذي تملكني، ساعة رأيت مجندة يهودية تعبث ضاحكة بلحية عمي ابي عثمان..

وعمي ابو عثمان ليس عمي بالضبط، ولكنه حلاق الرملة وطبيبها المتواضع، ولقد تعودنا على ان نحبه منذ وعيناه وان نناديه بعمي احتراماً وتقديراً، كان واقفاً يضم الى جنبه ابنته الاخيرة، فاطمة، صغيرة سمراء تنظر بعينيها السوداوين الواسعتين الى اليهودية السمراء..

- ابنتك؟!

وهز ابو عثمان رأسه بقلق، ولكن عينيه كانتا تلتمعان بتكهن قاتم عجيب، وببساطة شديدة رفعت اليهودية مدفعها الصغير، وصوبته الى رأس فاطمة، الصغيرة السمراء ذات العيون السوداء المتعجبة دائماً..

في تلك اللحظة، وصل احد الحراس اليهود في تجواله امامي، واستلفت نظره الموقف، فوقف حاجباً عني المنظر، ولكنني سمعت صوت ثلاث طلقات متقطعة دقيقة، ثم تيسر لي ان ارى وجه ابي عثمان

يتموج بأسى مريع، ونظرت الى فاطمة، مدلى رأسها الى الامام، ونقاط من الدم تتلاحق هابطة خلال شعرها الاسود الى الارض البنية الساخنة.

وبعد هنيهة، مر أبو عثمان من جانبي، حاملاً على ساعديه الهرمتين جثة فاطمة، الصغيرة السمراء: كان صامتاً جامداً ينظر امامه بهدوء رهيب، وما لبث ان مر بي غير ناظر اليّ البتة، وراقبت ظهره المنحني وهو يسير بهدوء بين الصفين الى اول منعطف، وعدت انظر الى زوجته جالسة على الأرض ورأسها بين كفيها تبكي بأنين مقطع حزين، وتوجه جندي يهودي نحوها، واشار لها ان تقف.. ولكن العجوز لم تقف، كانت يائسة الى آخر حدود اليأس.

هذه المرة، استطعت ان ارى بوضوح كل ما حدث، ورأيت بعيني كيف رفسها الجندي بقدمه، وكيف سقطت العجوز على ظهرها ووجهها ينزف دماً، ثم رأيته، بوضوح كبير، يضع فوهة بندقيته في صدرها، ويطلق رصاصة واحدة..

في اللحظة التالية، توجه الجندي ذاته نحوي، وبهدوء شديد طلب مني ان ارفع ساقي التي انزلتها للأرض دون ان اشعر وعندما رفعت ساقي راضخاً، صفعني مرتين، ومسح ما علق على ظاهر يده من دم فمي، بقميصي، وشعرت باعياء مدمر لكنني نظرت الى امي، هناك بين النساء، رافعة ذراعيها في الهواء كانت تبكي بصمت ولكنها في تلك اللحظة ضحكت من خلال بكائها ضحكة صغيرة دامعة، وشعرت بساقي تلتوي تحت ثقلي، وبألم فظيع يكاد يقطع فخذي، لكنني ضحكت ايضاً، وتمنيت مرة اخرى لو انني استطيع ان اركض الى امي،

فاقول لها انني لم اتألم كثيراً من الصفعتين، وانني على ما يرام، وارجوها باكياً ان لا تبكي، وان تتصرف كما تصرف ابو عثمان قبل هنيهة.

وقطع افكاري مرور ابي عثمان من امامي عائداً الى مكانه بعد ان دفن فاطمة، وعندما حاذاني، غير ناظر الي البتة، تذكرت انهم قتلوا زوجته، وان عليه ان يواجه مصاباً جديداً الآن، وتابعته مشفقاً، خائفاً بعض الشيء، الى ان وصل الى مكانه فوقف هنيهة مولياً ظهره المحدودب المبلول بالعرق، لكنني استطعت ان اتصور وجهه: جامداً صامتاً مزروعاً بحبيبات من العرق اللامع، وانحنى ابو عثمان ليحمل على ذراعيه الهرمتين جثة زوجته التي طالما رأيتها متربعة امام دكانه تنتظر انتهاءَه من الغداء كي تعود الى الدار بالأواني الفارغة، وما لبث ان مر بي، وللمرة الثالثة، لاهثاً لهاثاً رفيعاً متواصلاً وحبيبات العرق مزروعة في وجهه المغضن، وحاذاني، غير ناظر الي البتة، وعدت مرة اخرى اراقب ظهره المنحني المبتل بالعرق وهو يسير الهوينا بين الصفين.

لقد كف الناس عن البكاء.

وخيم سكون فاجع على النساء والشيوخ..

وبدا كأنما ذكريات ابي عثمان تنخر في عظام الناس باصرار، هذه الذكريات الصغيرة التي حكاها ابو عثمان لكل رجال الرملة وهم مستسلمون له على كرسي الحلاقة.. هذه الذكريات التي بنت لنفسها عالماً خاصاً في صدور كل الناس هنا.. هذه الذكريات بدت كأنما تنخر في عظام الناس باصرار.

لقد كان ابو عثمان، كل عمره، رجلاً مسالماً محبوباً، كان يؤمن بكل

شيء، واكثر ما آمن بنفسه، لقد بنى حياته من اللاشيء، فعندما قذفته ثورة جبل النار الى الرملة كان قد فقد كل شيء، وبدأ من جديد: طيباً كأي غرسة خضراء في ارض الرملة الطيبة، وكسب حب الناس ورضا الناس، وعندما بدأت حرب فلسطين الأخيرة، باع كل شيء، واشترى اسلحة كان يوزعها على اقاربه ليقوموا بواجبهم في المعركة، لقد انقلبت دكانه الى مخزن للمتفجرات والأسلحة، ولم يكن يريد لهذه التضحية أي ثمن، كل ما كان يطلب هو ان يدفن في مقبرة الرملة الجميلة المزروعة بالاشجار الكبيرة، هذا كان كل ما يريده من الناس. . كل رجال الرملة يعرفون ان ابا عثمان لا يريد الا ان يدفن في مقبرة الرملة عندما يموت.

هذه الاشياء الصغيرة هي التي اسكتت الناس، كانت وجوههم المبلولة بالعرق تنوء تحت ثقل هذه الذكرى. . ونظرت الى امي، واقفة هناك، رافعة ذراعيها في الهواء، شادة قامتها كأنها وقفت الآن، تتابع ابا عثمان بنظرها. . صامتة كأنها كوم رصاص، وعدت انظر الى بعيد، ورأيت ابا عثمان واقفاً امام حارس يهودي يحادثه ويشير الى دكانه، وما لبث ان سار وحيداً باتجاه الدكان، وعاد حاملاً فوطة بيضاء لف بها جثة زوجته. . وتابع طريقه الى المقبرة.

ثم لمحته عائداً من بعيد، بخطواته الثقيلة وظهره المنحني وساعديه الساقطتين الى جنبيه باعياء، واقترب مني بطيئاً كما كان يسير، شيخاً اكثر مما كان، معفراً مغبراً يلهث لهاثاً طويلاً رفيعاً، وعلى صدريته نقاط كثيرة من الدم الممزوج بالتراب. .

ولما حاذاني، نظر الي كأنه يمر بي للمرة الاولى ويراني، واقفاً هناك، في منتصف الشارع تحت سطح شمس تموز المحرقة: معفراً مبلولاً

بالعرق، بشفة مجروحة مدلاة تجمد عليها الدم، واطال النظر وهو يلهث، كانت في عينيه معان كثيرة لم استطع فهمها لكنني احسستها وما لبث ان عاد الى مسيره، بطيئاً مغبراً لاهثاً، فوقف، وادار وجهه للشارع، ورفع ذراعيه وصالبهما في الهواء.

* * *

لم يتيسر للناس ان يدفنوا ابا عثمان كما اراد، ذلك انه عندما ذهب الى غرفة القائد ليعترف بما يعرف، سمع الناس انفجاراً هائلاً هدم الدار وضاعت اشلاء ابي عثمان بين الانقاض.

وقالوا لامي، وهي تحملني عبر الجبال الى الاردن، ان ابا عثمان عندما ذهب الى دكانه قبل ان يدفن زوجه، لم يرجع بالفوطة البيضاء، فقط.

دمشق - ١٩٥٦

ب ـ ورقة من الطيرة

«ماذا كنت اريد ان اقول؟ نعم، كنت اريد ان احكي قصة ذلك الزبون الذي يشتري مني كل مساء ثلاثة اقراص من العجوة، انه زبون من نوع خاص، هذا النوع الذي يحس بعض الغبطة ـ امام اصحابه على الاقل ـ لان له صديقاً عجوزاً يبيع العجوة، انت تعرف ان ربحي بهذا البيع ليس كبيراً ولكنه، والحمد الله، كاف، فأنا اشتري كل ثلاثة اقراص من العجوة بفرنكين اثنين، وابيع الواحد بفرنك، ليس هذا فحسب، بل ان مجموعة كثيرة من الزبائن تدفع فرنكاً دون ان تأخذ قرصاً، وهذه هي المجموعة المفضلة عندي، نعم، كنت اريد ان احكي قصة ذلك الزبون ولكن ما الذي جعلني انسى؟ آه! ذلك الشرطي ذو الوجه المجروح، ان كثيراً من رجال الشرطة لهم نفوس طيبة، ولكن هذا الشرطي لم يعجبني ابداً! هل رأيته كيف تصرف؟ هل انا المذنب؟ لقد كنت واقفاً هناك، على المنعطف عندما اقترب مني وقال وهو يهز طبق العجوة «يجب ان تذهب من هنا!»».

لقد كان شرطياً جديداً، هذا مؤكد، اذ ان بعض الشرطة الطيبين المسؤولين عن هذا الشارع، كانوا يسمحون لي ان أقف هناك. . عندما قال الشرطي ذلك، حاولت ان اشرح له بعض الامور، لكنه رفع طبق

العجوة الى رأسي وقال: «يجب ان تحمد الله انني لم اضعه على رأسك مقلوباً» ثم دفعني دفعة شديدة، كأنني يهودي، ولكنني لست يهودياً، وانت تعرف ان هذه اهانة كبيرة اذ اين كان هذا الابن الحلال يوم كنت احارب اليهود في الطيرة وفي حيفا؟ اين كان؟ آه! حذار ان تتصور انني ناقم على هذا الشرطي..

الحمد لله على اي حال. الحمد لله انني لم اكن خائناً ولا جباناً في يوم من الايام. ولو كنت كذلك اذن لما كنت سامحت هذا الشرطي.. والذنب في هذا ليس ذنبه.. انه ذنب الذي اضاع فلسطين وحتم علينا حياة الكفاف هذه، حتم علينا ان نعيش وكأننا خرجنا من فلسطين كي نبحث عن عمل ما فقط.. على كل حال انا اعرف ما الذي اضاع فلسطين.. كلام الجرائد لا ينفع يا بني، فهم - اولئك الذي يكتبون في الجرائد - يجلسون في مقاعد مريحة وفي غرف واسعة فيها صور وفيها مدفأة، ثم يكتبون عن فلسطين، وعن حرب فلسطين، وهم لم يسمعوا طلقة واحدة في حياتهم كلها، ولو سمعوا، اذن، لهربوا الى حيث لا ادري، يا بني، فلسطين ضاعت لسبب بسيط جداً، كانوا يريدون منا - نحن الجنود - ان نتصرف على طريقة واحدة، ان ننهض اذا قالوا انهض وان ننام اذا قالوا نم وان نتحمس ساعة يريدون منا ان نتحمس، وان نهرب ساعة يريدوننا ان نهرب.. وهكذا الى ان وقعت المأساة، وهم انفسهم لا يعرفون متى وقعت! انهم لم يعرفوا قط كيف يقودون جنودهم.. كانوا يحسبون ان هؤلاء الجنود ضرب طريف من الاسلحة.. تحتاج الى حشو.. صاروا يحشونها بالاوامر المتناقضة، كان الواحد منا يحارب اليهود فقط لانهم يريدونه ان يحارب اليهود!..

لقد كان هنالك ايضاً بعض القادة المخلصين. . ولكن ماذا يستطيع الواحد منهم ان يفعل لوحده؟ ماذا يستطيع ان يفعل ملاك، سقط فجأة الى جهنم، وعلقت جناحاه في براثن الشياطين؟ لقد تيسر لي ان ادخل معركتين مع ابراهيم ابو ديه، رحمه الله لم يكن يحارب الا وهو واقف على قدميه كأنه يلقي خطاباً، وكنا كلنا نندفع الى الامام كأننا ذاهبون الى عرس. . رحمه الله. . ان اعرف شيئاً كثيراً عن حياته، لقد بدأ صغيراً مع عبد القادر الحسيني يأخذ الرسائل عبر الجبال الى الرفاق، ثم كبر ابراهيم، وحمل البارودة، ونزل الى المعركة، كان عبد القادر الحسيني يقول ان ابراهيم هو اشجع رجل رآه في حياته، كان ذكياً جداً. . وفي ١٩٤٨ خاض مع رجاله معركة في «ميكور حاييم» وخرج منها بست عشرة رصاصة في ظهره كانت سبب شلله، ثم امضى اربع سنوات بعدها يتعذب. . انت تستطيع ان تتصور كيف يكون شعور رجل مشلول امضى حياته يحارب واقفاً على قدميه. . لقد كان ينظر، فقط، ثم يبتسم. ويعود الى التفكير بخمس وعشرين ليرة يحتاجها يومياً ثمن حقن المورفين تهدىء من عذابه بعض الشيء. . . كان يتعذب. الى ان فكرت بعض الدول العربية في ان تساعده وبعد مشاورات قررت له راتباً شهرياً لمدى الحياة، وسافر مندوب عن هذه الدول الى بيروت ليزف البشرى. . . وعندما دخل الغرفة، كان ابراهيم ابو ديه يحتضر، وكان ثلاثة رجال يقفون الى جانب سريره يبكونه. . وطلب ابراهيم منهم بصوت خفيض ان ينشدوا له نشيد موطني. . ووقف الرجال الثلاثة ينشدون له النشيد، وهم يبكون، بينما كان هو يموت. رحمه الله. . لقد تعذب كثيراً ومن كان قرب سريره وهو يموت؟ مسكين! الم اقل لك انه لم يكن هناك من يهتم بالابطال ويحافظ عليهم؟ لقد تعذب

طويلاً. . وبينما هو يموت دخلت امرأة كبيرة في السن. . . وقدمت له باقة صغيرة من الزهر الاحمر. . ما اسمه؟ . . «الشقيق» . . نعم «الشقيق»، يسمونه هناك في القرى «الحنون» وقالت له وهي توشك ان تبكي . . .

- هذا «الحنون». . . من هناك.

وامسك ابراهيم الزهر. . وضمه بعنف الى صدره، ثم ابتسم وهو يقول. . .

- ايها الجرح. . .

ومات وهو يشد على الزهر الذي دفن معه. . أرأيت كيف يموت الابطال دون ان يسمع بهم احد؟ أرأيت؟

لم يكن هذا في القدس فقط. . بل في كل مكان. . خذ هذا المثال. . لقد كان في «هادار» حيفا مطحنة كبيرة تقتل الناس في شوارع الكرمل دون حساب، لم يكن في حيفا كلها لغم كبير يكفي لنسف هذه المطحنة. . ثم تيسر، بما لا اعرف كيف، ان يذهب قائد حامية حيفا، يومذاك حمد الحنيطي إلى «سوريا» وان يرجع بلغم كبير، وعندما دخل من رأس الناقورة، استطاعت امرأة يهودية ان تعرف هذا السر، فأبلغت بواسطة اللاسلكي مستعمرة تقع بين عكا وحيفا. . اسمها؟ لا اذكر. . المهم. . مر حمد من عكا في المساء مع رفاقه ومن بينهم «سرور برهم» هل سمعت عنه؟ حسناً، لقد وصلوا قرب المستعمرة قبل ان يهبط الظلام وهناك فاجأته قوة يهودية تريد ان تستولي على اللغم، وطلبت منه ان يستسلم، ولكنه رفض. ودافع دفاعاً مجيداً مع رفاقه القلائل حتى تساقطوا من حوله واحداً اثر واحد. . هل يسلم اللغم وينقذ حياته؟ طبعاً لا. . لقد, وقف حمد ورفع يديه، وعندما اقترب اليهود ليمسكوه،

اطلق رصاصة واحدة على اللغم الكبير، لقد قال الناس يومها انهم سمعوا انفجار اللغم من عكا. . وتطايرت اشلاء اليهود، وتمزع الشهيد الى درجة انهم لم يستطيعوا ان يجدوا اي شيء منه كي يدفنوه. .

ماذا كنت اريد ان اقول لك؟ . . آه. . ان المسؤولين لم يحافظوا على ابطالهم. . ولم يكونوا على معرفة بأي اصول للمعارك. . لقد استشهد القائد مع رفاقه. انا لا أريد ان اناقشك في انه تصرف على شكل معقول او متهور، ولكن اريد ان اسأل. . ماذا حدث لاهالي الشهداء؟ والقيادة في حيفا كيف تصرفت حتى تملأ المكان الذي خلفه الشهداء؟ ألم تدب الفوضى في حيفا الى درجة مؤلمة؟

ماذا أريد ان اقول؟ آه، عن المسؤولين وعنا. . خذ ما حدث في «الريفانيري» هذا المصنع الكبير لتكرير النفط، هناك كان يشتغل العمال العرب واليهود، جنباً الى جنب، وكنت انا اشتغل في ذلك المصنع، وجرى حادث صغير نسيت معظم تفاصيله، لقد القى يهودي قنبلة على حارس عربي كان يقف على باب المصنع، فقتله، وكان حزننا شديداً عندما سمعنا عن موت الحارس ورفاقه، فأغلقنا الباب الكبير للمصنع ثم استعملنا في قتل الصهاينة جميع الوسائل، لقد تقابلنا يومذاك وجهاً لوجه وكلانا مجرد من سلاحه، ولم يكن اي محل يتسع لسوى الرجولة فقط. . واستطعنا ان نتغلب عليهم، لم يكن عندنا في الداخل، سلاح من اي نوع، فاستعمل بعضنا «التراكتور» واستعمل اكثرنا الرفش والفأس ذات الرأسين الطويلين، وحدثت المعركة. لم نبق على عدو واحد، كان معظمنا جديداً على هذا النوع من القتال، ولكن الجميع قاتلوا كأنهم رجل واحد، رامين الى الشيطان بمستقبل

وظائفهم، غير آبهين البتة الى توسلات اليهود الذين كانوا يقولون اننا عمال اكلنا العيش والملح معاً . . ثم ماذا حدث بعد ذلك، بعد ان قتلنا عشرات اليهود؟ وبعد ان تركنا اعمالنا في «الريفانيري» واخذنا نتجول في الشوارع كالشحاذين كما اتجول الآن، هل تعتقد انهم اعطونا اسلحة وقالوا لنا: حاربوا معنا. . وموتوا معنا؟ لقد اهملنا المسؤولون الى درجة انني سمعت انهم قالوا اننا جزارون ولسنا محاربين وهم حتماً لا يحتاجون الينا، فلذلك علينا ان نذهب الى حيث نشاء كي نحارب كيف نشاء. . وضد من نشاء! جزارون! هكذا قالوا. . واي نوع من المحاربين يريدون؟ محاربون يلبسون المعاطف البيضاء ويردون على الجرائم اليهودية بابتسامات عذاب؟ ام يريدوننا ان نحارب بمحاضر جلسات جامعة الدول العربية؟.

اسمع ماذا جرى لهذا المحارب المهذب. . لقد كان سائقاً لسيارة عمومية، وشاهد امرأة يهودية تعدو هاربة امام مجموعة من الاطفال كانوا يرجمونها بالحجارة. . كانت الحوادث في بدء توترها، فما كان منه الا ان نهر الاطفال، وامسك المرأة من يدها، وقادها الى حيث اوقف سيارته، وذهب بها الى اهلها في تل ابيب، هل تعرف ماذا حدث هناك؟ لقد سرقوا سيارته، وقتلوه. مزقوه ورموا بجثته مقابل جامع الشيخ حسن. . فكيف يريدوننا ان نحارب اناساً من ذلك النوع؟ بالورود؟

هذا هو الذي اضاع فلسطين، يا بني، هل تفهم من هذا انني اريد ان ترسل رسالة شكر الى كل جندي يصيد عدوه؟ كلا. . كلا. . معاذ الله. . لكنني كنت اعني ان عليهم ان يتفقوا على شيء ما. . ان يقرروا كيف يتوجب عليهم ان يتصرفوا. . ان يحترموا شعور المحارب الذي

يفقد رفاقه في كل معركة . . علي أي حال انا لا أريد ان احدثك كثيراً عن المعارك، لقد كنت كل عمري اضحك على اولئك العجائز الذين لم يكونوا يجدون غير ذكريات قتالهم في السفر برلك يسمعوننا اياها، ولكن الذي اريد ان اقوله، انني حاربت، اكثر مما يستطيع الشخص الواحد ان يفعل، ولكن الخطأ لم يكن مني انا، كان من فوق، من هؤلاء الذين يقرأون ويكتبون ويرسمون خطوطاً ملتوية ينظرون اليها باهتمام . . اما انا. .فماذا استطيع ان افعل غير ان احمل بارودتي وان اهجم، وان انظر الى حيث يشير رئيسي ثم اركض في ذلك الاتجاه وسلاحي في يدي؟

المهم ان علينا ان لا ننسى ما حدث عندما نلتقي مرة اخرى . . وان علينا ان نحارب اليهود كما يفعل محرر و الجرائد اولئك في غرفهم عندما يجدون كمية كبيرة من الذباب!

كم انا ثرثار!

كنت اريد ان احكي لك عن ذلك الزبون الذي يشتري مني ثلاثة اقراص من العجوة دفعة واحدة كل مساء . . ولكن الحديث جرني، والذنب في هذا، هو ذنب ذلك الشرطي الذي طردني من مكاني المختار كأنه يطرد لصاً . .

لو انني حكيت لذلك الشرطي قصتي، وقلت له من انا، اذن لضحك ضحكاً متواصلاً، ولقلب الطبق على رأسي كما كان ينوي ان يفعل. لذلك فأنا لن اذهب لاطلب منه ان يحترمني . . فهذا شيء مضحك . . لكنني يوماً ما، سآتي من فلسطين ماشياً على قدمي، كما اتيت في المرة الاولى، وسأبحث عن الشرطي هذا ما استطعت، ثم

سأدعوه لان يقضي شهراً كاملاً في طيرة حيفا على حسابي . . له الخيار في ان يتنقل فيها كما يشاء، ويقف حيث يشاء . . .

دمشق- ١٩٥٧

جـ - ورقة من غزة

عزيزي

تسلمت رسالتك الآن، وفيها تخبرني انك اتممت لي كل ما احتاجه ليدعم اقامتي معك في ساكرمنتو، وكذلك وصلني ما يشعر انني قبلت في فرع الهندسة المدنية في جامعة كاليفورنيا، لا بد لي يا صديقي من شكرك على كل شيء، لكن سيبدو لك غريباً بعض الشيء، ان ازف اليك هذا النبأ، وثق تماماً يا مصطفى انني لا اشعر بالتردد قط، بل اكاد اجزم انني لم أر الامور بهذا الوضوح اكثر مني الساعة، لا يا صديقي.. لقد غيرت رأيي، فأنا لن اتبعك «الى حيث الخضرة والماء والوجه الحسن» كما كتبت، بل سأبقى هنا، ولن ابرح ابداً.

انه لشيء يزعجني حقيقة، يا مصطفى، ان لا نكمل ذلك الجريان لحياتينا في خط واحد، فاني اكاد اسمعك تذكرني بعهدنا على الاستمرار معاً، وكيف كنا نهتف: «سنصير أغنياء»، ولكن يا صديقي ليس في يدي حيلة، نعم، انني لا زلت أذكر تماماً يوم وقفت في ساحة المطار في القاهرة، اشد على يدك واحدق بالمحرك المجنون، كان كل شيء

ساعتئذ يدور مع المحرك ذلك الدوران الصاخب، وكنت انت تقف امامي، بوجهك المليء الصامت، لم يتغير وجهك عن الوجه الذي نشأت به في حي «الشجعية» في غزة، لولا هذه الغضون المسطحة، لقد نشأنا معاً، وكان واحدنا يفهم الآخر تمام الفهم، وتعاهدنا على الاستمرار معاً الى النهاية. . ولكن:

- «بقي ربع ساعة وستقلع الطائرة، لا تحدق هكذا باللاشيء، اسمعني، ستذهب في العام القادم الى الكويت، وستوفر من راتبك ما يقتلعك من غزة الى كاليفورنيا، لقد بدأنا معاً، ويجب ان نستمر. . »

وكنت لحظتذاك ارقب شفتيك وهما تتحركان بسرعة، هكذا كانت طريقتك في الكلام: لا فواصل ولا نقط، لكنني كنت احس احساساً غامضاً انك غير راض تماماً عن هروبك، لم تكن تستطيع ان تعد ثلاثة اسباب وجيهة لهذا الهروب، وكنت اعاني انا ايضاً من هذا التمزق، ولكن الشعور الاوضح كان: لماذا لا نترك هذه الغزة ونهرب. . لماذا؟ الا ان وضعك كان قد اخذ يتحسن: فلقد تعاقدت معك معارف الكويت دون ان تتعاقد معي، وفي غمرة من البؤس الذي كنت اعيش فيه، كانت تصلني منك في بعض الاحيان مبالغ صغيرة، كنت تريدني أن اعتبرها ديناً، خوف ان اشعر بالصغار، لقد كنت تعرف ظروفي العائلية تماماً، وكنت تعرف ان راتبي الضئيل في مدارس وكالة الغوث الدولية لم يكن يكفي لاعالة امي، وزوجة اخي الارملة واولادها الاربعة.

-«اسمعني جيداً، اكتب لي كل يوم. . كل ساعة. . كل دقيقة، لقد اوشكت الطائرة ان تطير، استودعك الله، بل قل الى اللقاء. . الى

اللقاء . » .

ومست شفاهك الباردة وجنتي، وادرت عني وجهك ميمماً شطر الطائرة، وعندما التفت الي مرة ثانية كنت أرى دموعك . .

وبعدها تعاقدت معي معارف الكويت، لا داعي لان اكرر عليك كيف كانت تجري تفاصيل حياتي هناك، فلقد كنت اكتب لك دائماً عن كل شيء، كانت حياتي دبقة، فارغة، كمحارة صغيرة: ضياع في الوحدة الثقيلة، وتنازع بطيء مع مستقبل غامض كأول الليل، وروتين عفن، ونضال ممجوج مع الزمن، كل شيء كان لزجاً حاراً، كانت حياتي كلها زلقة، كلها توق الى آخر الشهر!

وفي منتصف العام، ذلك العام، ضرب اليهود مركز الصبحة، وقذفوا غزة، غزتنا، بالقنابل واللهب، كان يمكن ان يغير لي هذا الحدث شيئاً من الروتين، لكنه لم يكن لي ما آبه له كثيراً: فأنا سأخلف هذه الغزة ورائي، وسأمضي الى كاليفورنيا اعيش لذاتي التي تعذبت طويلاً، انني اكره غزة، ومن في غزة: كل شيء في البلد المقطوع يذكرني بلوحات فاشلة رسمها بالدهان الرمادي انسان مريض، نعم، لقد كنت ارسل لامي، ولأرملة أخي واولادها، مبالغ ضئيلة تعينهم على الحياة، لكنني- ايضاً- سأتحرر من هذا الخيط الاخير، هناك، في كاليفورنيا الخضراء البعيدة عن رائحة الهزيمة التي تزكم انفي منذ سبع سنوات . . ان الشفقة التي تربطني بأولاد اخي وامهم وامي، لا تكفي ابداً لتبرير جريان مأساتي هذا الجريان الشاقولي . . لا يمكن ان تشدني الى تحت . . اكثر مما شدتني . . يجب ان اهرب!

انت تعرف يا مصطفى هذه الأحاسيس، لانك عشتها فعلاً: ما هذا الشيء الغامض الذي كان يربطنا الى غزة فيحد من حماسنا الى الهروب؟ لماذا لا نشرح الامر تشريحاً يعطيه معنى واضحاً، لماذا لا نترك هذه الهزيمة، بجراحها، ونمضي الى حياة اكثر الواناً واعمق سلوى... لماذا؟ لم نكن ندري بالضبط!

وعندما اخذت اجازتي في حزيران، وجمعت كل ما املك توقاً الى الانطلاقة الحلوة، الى هذه الاشياء الصغيرة التي تعطي الحياة معنى لطيفاً ملوناً، وجدت غزة كما تعهدها تماماً: انغلاقاً كأنه غلاف داخلي، ملتف على نفسه، لقوقعة صدئة قذفها الموج الى الشاطىء الرملي اللزج قرب المسلخ، غزة هذه، اضيق من نفس نائم اصابه كابوس مريع، بأزقتها الضيقة، ذات الرائحة الخاصة، رائحة الهزيمة والفقر، وبيوتها ذوات المشارف الناتئة.. هذه غزة، لكن ما هي هذه الأمور الغامضة، غير المحددة، التي تجذب الانسان لأهله، لبيته، لذكرياته، كما تجذب النبعة قطيعاً ضالاً من الوعول، لا اعرف! وكل الذي اعرف انني ذهبت لامي في دارنا ذلك الصباح، وهناك قابلتني زوجة أخي المرحوم ساعة وصولي، وطلبت مني، وهي تبكي، ان ألبي رغبة ناديا، ابنتها الجريحة في مستشفى غزة، فأزورها ذلك المساء. انت تعرف ناديا ابنة اخي الجميلة ذات الاعوام الثلاثة عشر؟

في ذلك المساء اشتريت رطلاً من التفاح ويممت شطر المستشفى أزور ناديا.. كنت اعرف ان في الامر شيئاً اخفته عني امي وزوجة اخي، شيئاً لم تستطيعا ان تقولاه بألسنتهما.. شيئاً عجيباً لم استطع ان احدد اطرافه البتة! لقد اعتدت ان احب ناديا، اعتدت ان احب كل ذلك

الجيل الذي رضع الهزيمة والتشرد، الى حد حسب فيه ان الحياة السعيدة ضرب من الشذوذ الاجتماعي.

ماذا حدث في تلك الساعة؟ لا ادري! لقد دخلت الغرفة البيضاء بهدوء جم، ان الطفل المريض يكتسب شيئاً من القداسة فكيف إذا كان الطفل مريضاً اثر جراح قاسية مؤلمة؟.. كانت ناديا مستلقية على فراشها، وظهرها معتمد على مسند ابيض انتثر عليه شعرها، كفروة ثمينة، كان في عينيها الواسعتين صمت عميق، ودمعة هي ابداً في قاع بؤبؤها الاسود البعيد، ووجهها كان هادئاً ساكناً، لكنه موح كوجه نبي معذب، لا زالت ناديا طفلة، لكنها كانت تبدو اكثر من طفلة، اكثر بكثير، وأكبر من طفلة، اكبر بكثير..

- ناديا..

لا أدري، هل انا الذي قلتها ام انسان آخر خلفي، لكنها رفعت عينيها نحوي، وشعرت بهما تذيبانني كقطعة من السكر سقطت في كوب شاي ساخن، ومع بسمتها الخفيفة، سمعت صوتها:

- عمي.. وصلت من الكويت؟

وتكسر صوتها في حنجرتها، ورفعت نفسها متكئة على كفيها ومدت عنقها نحوي فربت على ظهرها، وجلست قربها:

- ناديا، لقد احضرت لك هدايا من الكويت، هدايا كثيرة سأنتظرك الى حين تنهضين من فراشك سالمة معافاة، وتأتين لداري فأسلمك اياها، ولقد اشتريت لك البنطال الاحمر الذي ارسلت تطلبينه مني.. نعم.. لقد اشتريته..

كانت كذبة ولدها الموقف المتوتر، وشعرت وانا ألفظها كأنني اتكلم الحقيقة لأول مرة، اما ناديا فقد ارتعشت كمن مسه تيار صاعق، وطأطأت رأسها بهدوء رهيب، وأحسست بدمعها يبلل ظاهر كفي:

ـ قولي يا ناديا.. الا تحبين البنطال الاحمر؟

ورفعت بصرها نحوي، وهمت ان تتكلم، لكنها كفت، وشدت على اسنانها، وسمعت صوتها مرة اخرى من بعيد:

ـ يا عمي!

ومدت كفها، فرفعت بأصابعها الغطاء الابيض، واشارت الى ساق مبتورة من اعلى الفخذ...

يا صديقي..

ابداً لن انسى ساق ناديا المبتورة من اعلى الفخذ، لا، ولن انسى الحزن الذي هيكل وجهها واندمج في تقاطيعه الحلوة الى الابد.. لقد خرجت يومها من المستشفى الى شوارع غزة، وانا اشد باحتقار صارخ على الجنيهين اللذين احضرتهما معي لاعطيهما لناديا، كانت الشمس الساطعة تملأ الشوارع بلون الدم.. كانت غزة، يا مصطفى، جديدة كل الجدة، ابداً لم نرها هكذا انا وانت: الحجارة المركومة على اول حي الشجعية، حيث كنا نسكن، كان لها معنى كأنما وضعت هناك لتشرحه فقط، غزة هذه، التي عشنا فيها ومع رجالها الطيبين سبع سنوات في النكبة كانت شيئاً جديداً، كانت تلوح لي انها.. انها بداية فقط، لا ادري لماذا كنت اشعر انها بداية فقط، كنت اتخيل ان الشارع الرئيسي، وانا اسير فيه عائداً الى داري، لم يكن الا بداية صغيرة لشارع

طويل طويل يصل الى صفد، كل شيء كان في غزة هذه ينتفض حزناً على ساق ناديا المبتورة من اعلى الفخذ، حزناً لا يقف على حدود البكاء، انه التحدي، بل واكثر من ذلك، انه شيء يشبه استرداد الساق المبتورة! . . .

لقد خرجت الى شوارع غزة، شوارع يملؤها ضوء الشمس الساطع، لقد قالوا لي ان ناديا فقدت ساقها عندما القت بنفسها فوق اخوتها الصغار تحميهم من القنابل واللهب وقد انشبا اظفارهما في الدار، كان يمكن لناديا ان تنجو بنفسها، ان تهرب . . ان تنقذ ساقها، لكنها لم تفعل . .

لماذا؟

* * *

لا يا صديقي! لن آتي لسكرمتنو، وانا لست آسفاً البتة، لا ولن اكمل ما بدأناه معاً منذ طفولتنا: هذا الشعور الغامض الذي احسسته وانت تغادر غزة . . هذا الشعور الصغير يجب ان ينهض عملاقاً في اعماقك . . يجب ان يتضاخم، يجب ان تبحث عنه كي تجد نفسك . . هنا بين انقاض الهزيمة البشعة . .

الكويت ـ ١٩٥٦

الاخضر والاحمر

- ١ -
النزال

لم يكن يظن لحظة واحدة، انه قريب من الموت قرب انفه من الهواء.. لم يكن يظن ذلك قط.. كل الطريق كانت تعبق بحياة بكر كأنها خلقت لتوها، كأن الله صنعها الآن فحسب ليتنشقها، وليتركها تغسل صدره مثل شلال من الريش.. ايار يبرعم في جبينه وكفيه وأضلاعه ويشمه فينهال الى صدره دوامات لا تنضب ولا تنثي.. كيف تريده ان يظن، لحظة واحدة، انه قريب من الموت قرب الهواء الى انفه؟ ولكنه كان قريباً منه، كان قريباً منه دون ان يحسه او يشمه.. لم تكن عنده مقدرة شم الموت كما كانت عنده قدرة احساس الحياة.. وقالوا له مرة ان هذا خطأ مهلك، وان الحياة لا قيمة لها قط ان لم تكن، دائماً، واقفة قبالة الموت.. ولكنه لم يكن يبالي.. بينه وبين النظريات المتقعرة ما بين ايار والكفن.. وبينه وبين الموت ما بين تراب ايار والجفاف...

كان ماضياً الى الزوج والولد وجدران اللحم والحب التي كانت دائماً هناك، في ايار وفي غير ايار.. التعريشة الخماسية التي تتسلق بأصابع

ثابتة جدار الدار الخشن فتصبغه بكل خضرة البعث وتجعل منه شجرة، فرع شجرة عريض يحضن الزوج والولد وجدران اللحم والحب.. بينه وبين الموت ما بين الموت والحب،لم يكن يظن لحظة واحدة، ان بينه وبين الزوج والولد وجدران اللحم والحب لحظة موت واحدة، واقفة عند المنعطف، مشهرة اظافرها العشرة كأنصال مشرعة بالانتظار.. لحظة موت واحدة ولكنها حاسمة ونهائية.. ولم يكن يعرف، هو، انها واقفة هناك، بالانتظار، كان بينه وبينها يقف ايار..

الا انه كان لا بد ان يمر من ذلك المنعطف ،ولمدى لحظة واحدة فقط احس رجفة الترقب الرهيب، فباطأ خطواته هنيهة واصاخ السمع، وحينها لمعت امام بصره الاظافر المشرعة لم يفكر الا بالنزال..

قد يكون ذلك حدث منذ زمن سحيق..

سحيق كأزل بلا قرار.. سحيق كالعدم او بذرة العبث، وراء مدى التذكر، فوق مستوى التخمين، ولكنه الآن ودائماً في صلب الاحساس، ينز الدم كل لحظة؛ ويخفق مرتجاً مثل سمكة هلامية علّ الارتجاج يرجعها الى الموج الذي رماها فوق رمل الشاطىء..

النزال! ما زال يذكر مقاطع مقطعة منه، ممزوجة بالوعي وبالغيبوبة: لقد انهالت الاظافر عليه فأعملت به تمزيقاً، تجمعت حواليه فافترست جلده وانغرزت في خاصرتيه ورئتيه فأخذ يلهث دماءه،كلمااستدار سدت عليه الاظافر منافذ الحياة ومنافذ ايار وتشابكت كالسيوف امام عينيه وانفه فمنعت عنه الرؤية ومنعت عنه الهواء.. ومثل من على وشك ان يستيقظ او ينام تعرف الى بعض تلك الاظافر ولكن حنجرته كانت قد

تجرحت وسدتها الدماء فحشرج: حتى انت؟ وفي لحظة تالية احس دبيب الموت، الا ان ايار كان ضخماً وكان كبيراً وكان قد صبغ الطريق بالخضرة.. احس بالاصابع تغوص الى قلبه فتبقره، وانهالت خيوط الدم فوق صدره زاحفة مثل افاع حمراء رفيعة وتجمعت عند قدميه وسالت جدولاً قانياً في الطريق..

انسحبت الاظافر فبقي جامداً واقفاً لمدى لحظات كالدهر.. لقد احس بالحياة تتسرب من جسده وبات احساسه بالموت صلباً وكبيراً ولكنه لم يشأ ان يقع فتجالد واضعاً كفيه فوق وجهه. الا ان الموت كان قد وصل، وسمعه يمشي فتخفق خطواته بالاناشيد البعيدة.. لقد اتى من تحت، تسلق ساقيه فأحس بالعجز، ولمدى لحظة واحدة عرف ان كل شيء قد انتهى، وان بينه وبين الزوج والولد وجدران الحب واللحم ما بين انفه والهواء.. بينه وبين ايار مابين خضرة ايار وجدول الدم.. سقط، حفرت ركبتاه في الارض حفرتين مدورتين.. بقي راكعاً وكفاه فوق وجهه، لحظة واحدة فحسب، ايار يتراجع، جدول الدم يفتش عن مصب، وصل الموت بأناشيده الى خاصرتيه فوقع، حفر جبينه حفرة مدورة في التراب.. صمت الموت: الشهيد يصلي..

- ٢ -
جدول الدم

في نفس تلك اللحظة حدث شيء لم يلحظه اي انسان من بين اولئك الذين تكوموا حول الميت ينظرون اليه بفضول قبل ان تصل

سيارة الصحة فتحمل الجسد الى القبر او الى المحرقة. .

ذلك انه في المكان الذي سقط فوقه الجبين، في الحفرة المدورة التي صنعتها السقطة، ولد طفل صغير. .

ليس يدري احد بالضبط كيف حدث ذلك، الآن، بوسع الكثيرين ان يقولوا بأن الطفل الصغير انبثق من الجبين بعد ان انضجه التراب الساخن الرطيب. . بوسع غيرهم ان يقولوا بأن الطفل كان موجوداً في التراب اصلاً فأيقظته السقطة. . ولكن الحقيقة الاقرب للتصديق ان الطفل انبثق من العينين، لفظته العينان مثلما يلفظ الرحم المترع الوليد. . وان في عين كل رجل ـ يقتل ظلماً ـ يوجد طفل يولد في نفس لحظة الموت. الا انه سرعان ما يموت هو الآخر لان مسافة السقوط، من عين الرجل الى الارض مسافة طويلة لا تتحملها بنيته الضئيلة. . على أي حال لقد عاش ذلك الطفل لانه غاص في الرمل، وعاش هناك دون ان يلحظه انسان فيدوسه قاصداً او غير قاصد. .

كان مخلوقاً ضئيلاً له ملامح رجل. . كان وجهه حاد الملامح حتى ليخيل للمرء، لو يراه، بأنه منحوت من حجارة صلدة بازميل خشن، كان فمه مطبقاً باحكام فهو لا يتكلم، وكانت جفونه ملتصقة ببعضها فهو لا يرى، وكان ضئيلاً ضئيلاً مثل عقدة الاصبع، اسود اللون قاتماً قاتماً كالليل، الا ان قلبه كان شديد البياض، كان الشيء الابيض الوحيد في الجسد الضئيل وكان بوسع المحدق الى الصدر الاسود ان يراه ينتفض، كمنقار عصفور قزم؛ داخل تلك الضلوع المتشابكة السوداء. . كانت بنيته الصغيرة متينة ومتناسقة وبديعة، كفاه فيهما عشرة اصابع كل اصبع له ثلاث عقد، تماماً مثل الانسان، وكانت

عضلات صدره تنغرس فوق ضلوعه كالصدف الاسود، وكانت له احلامه وآماله واوجاعه ومطامحه وذكرياته تماماً مثل سائر البشر.. كل الفرق هو انه كان صغيراً جداً، وكانت عيناه مغلقتين وشفتاه ملتصقتين.. ولكنه كان يتنفس، وكانت اكوام التراب المتراكمة فوقه وحوله غير قادرة على قتله..

لم يلحظ ولادته اي انسان ولم ينتبه اليه احد حين غاص في الرمل الرطب عميقاً عميقاً.. ولما حمل الحفارون جسد الميت الى المقبرة او المحرقة تفرق الناس، فخفت من فوق كاهل الاسود الصغير وطأة اقدام الجموع.. عندها فقط اكتشف انه وحيد وتائه، الا انه لم يستطع ان يحول بين ساقيه وبين رغبة المسير، فانطلق الى الامام، شاقاً بأظافره طريقه الصغير، كالدودة، داخل تلك الرمال المتراكمة حواليه وفوقه دون توقف ودون تعب، ساعة وراء ساعة ويوماً اثر يوم على غير هدى وعلى غير ضياء، يأكل رملاً ويتنفس رملاً ويشرب عصير الرمل، لا يلتفت الى الوراء ولا يتطلع الى فوق ولا يحول رأسه الى الجوانب.. وكان يحس، فيما هو يشق طريقه المظلم، أقدام الناس فوق رأسه تروح وتجيء فيشعر بأنه لو جرب ان يصعد الى فوق اذن لديس كما تداس الخنافس.. اصوات اقدام، هدير انهار، هرج امواج، كل لحظة كل ساعة كل يوم.. ووراءه كان يجري جدول الدم كأنه يلاحقه، كأنه قدره..

- ٣ -

الموت للند

مرت سنوات وانت تحت الاقدام ايها الاسود الصغير! تراك انبثقت من حدقة ابيك اعمى ابكم ام ان التراب ملأ فمك وانزرع في عينيك؟ بينك وبين النور سنوات ايها الاسود الصغير، وبينك وبين جدران اللحم والحب سنوات! أهو قدرك، ايها الاسود الصغير، ان تعيش في التراب وتتنفس في الظلام وتلاحق بجدول الدم؟ اهو قدرك، ايها الاسود الصغير ان تداس كل عمرك وان يطأ الناس، كل الناس، فوق كاهلك، وان تأكل تراباً وتتنفس وتشرب عصير التراب؟

ايها العملاق الممسوخ، يا عين ابيك المذبوح بالاظافر، لماذا لا تموت؟ لماذا لا تتوقف لحظة واحدة تحت تلك الاكوام من الاتربة فينطفىء الضوء الابيض المعلق في صدرك؟ اتراك تدري بأن حياتك مرهونة بذلك التراكض الوحشي المذعور؟ اتراك تعرف بأنك لو توقفت لاغرقك مد الدم ولانتهيت؟ ايها الاسود الصغير التعس.. ايها الاسود الصغير التعس.. لماذا لا تموت؟

* * *

الا ان الولد الضئيل لم يكن يبالي بكل تلك الهواجس التي كانت تلح على رأسه، وكان يواصل سعيه كالمسعور مستشعراً ذلك الهدير الشيطاني لنهر الدم وراءه، متلمساً طريقه بحذق الأعمى وصلابة الحجر.. في

غمرة تلك السنين المديدة صار بوسع اظافره ان تخدش الحديد اذا ما اعترض الانطلاق المصمم. ولم تعد الهواجس الرمادية قادرة على ايقاف الحماس الملتهب لحظة واحدة.

بعد كل تلك السنين التي مرت على ولادته، لم يحس به احد، ولذلك لم يعط اسماً، لم يضعه احد في حسابه ليتعرف عليه باسم او بلقب.. لم يشعر وجوده احد..صحيح؟ كلا! واحد فقط، الموت الذي ذبح اباه باظافره عند منعطف ايار قبل سنوات وسنوات كان يعلم ان الوليد الاسود موجود في مكان ما تحت تلك الارض فحشد الاقدام لتدوس منافذ الخروج.. لم يكن يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك..

* * *

كبرت ايها الاسود الصغير! صار عمرك اربع عشرة سنة، اربعة عشر ايار من فوقك، جدول الدم سقى اربعة عشر ربيعاً ايها الاسود الصغير وانت ماض كالدود تبحث عن ماذا؟ اي خلاص ترتجي؟ اين ستنتهي بك الطريق ايها التعس.. الم تفكر قط بأن تنتهي؟ بأن تريح الاقدام من عناء البحث عنك لتدوسك؟ عن اية نهاية تبحث؟ عن اية نهاية؟ ما زال القنديل الابيض ينوس في صدرك.. حتى متى؟ انت صغير على النزال.. والاظافر العشرة ما زالت مشرعة لامعة كالانصال تترقب بزوغك لتجفف بجلدك الاسود جدول الدم..

انت صغير على نزال اعدائك ايها المسخ...

يا عين ابيك القتيل فوق ربيع ايار.

ايها الذي يعيش تحت اكداس الاقدام.. اكبر.. اكبر.. لماذا لا تكون نداً قبل ان تموت؟

مت.. مت.. لقد نزفت عرقك واذبت عضلك دون ان تطفىء تلك النقطة البيضاء المعلقة في صدرك كالقنديل.. مت! ماذا بقي منك؟ تقول الكثير؟ نطقت؟ انفكت شفتاك عن اسنانك؟ لقد نزفت من العرق ما يصنع الف رجل كبير. يا عقدة الاصبع! ايها المسخ، يا عين الشهيد.. لا تمت قبل ان تكون نداً.. لا تمت..

بيروت- ١٩٦٢

ارض البرتقال الحزين.

عندما خرجنا من يافا الى عكا لم يكن في ذلك اية مأساة.. كنا كمن يخرج كل عام ليمضي ايام العيد في مدينة غير مدينته. ومرت ايامنا في عكا مروراً عادياً لا غرابة فيه، بل ربما كنت لصغري وقتذاك استمتع بتلك الايام لانها حالت دوني ودون الذهاب للمدرسة.. مهما يكن، ففي ليلة الهجوم الكبير على عكا بدأت تتوضح الصورة اكثر فأكثر... ومضت تلك الليلة قاسية مرة بين وجوم الرجال، وبين ادعية النسوة.. لقد كنا انا وانت ومن في جيلنا، صغاراً على ان نفهم ماذا تعني الحكاية من اولها الى آخرها... ولكن في تلك الليلة بدأت الخيوط تتوضح وفي الصباح، ساعة انسحب اليهود متوعدين مزبدين... كانت سيارة شحن كبيرة تقف في باب دارنا.. وكانت مجموعة بسيطة من اشياء النوم تقذف اليها من هنا وهناك بحركات سريعة محمومة... كنت اقف متكئاً بظهري على حائط البيت العتيق عندما رأيت امك تصعد الى السيارة، ثم خالتك، ثم الصغار، واخذ ابوك يقذف بك وباخوتك الى السيارة، وفوق الامتعة، ثم انتشلني من زاويتي ورفعني فوق رأسه الى القفص الحديد في سقف غرفة السائق حيث وجدت أخي رياض جالساً بهدوء... وقبل ان اثبت نفسي في وضع ملائم، كانت السيارة قد تحركت... وكانت عكا الحبيبة تختفي شيئاً فشيئاً في

منعرجات الطرق الصاعدة الى رأس الناقورة. . .

كان الجو غائماً بعض الشيء، واحساس بارد يفرض نفسه على جسدي، كان رياض جالساً بهدوء شديد، رافعاً ساقيه الى ما فوق حافة القفص، ومتكئاً بظهره على الامتعة محدقاً في السماء. . وكنت انا جالساً بصمت، واضعاً ذقني بين ركبتي طاوياً فوقهما ذراعي. . وحقول البرتقال تتوالى على الطريق. . وشعور بالخوف يتآكلنا جميعاً. .والسيارة تصعد لاهثة فوق التراب الندي... وطلقات بعيدة كأنها تحية الوداع. . .

وعندما بدأت رأس الناقورة تلوح من بعيد، غائمة في الافق الازرق وقفت السيارة. . . ونزلت النسوة من بين الأمتعة وتوجهن الى فلاح كان يجلس القرفصاء واضعاً سلة برتقال امامه مباشرة. . وحملن البرتقال. . .ووصلنا صوت بكائهن. . . وبدا لي ساعتذاك ان البرتقال شيء حبيب. . . وان هذه الحبات الكبيرة النظيفة هي شيء عزيز علينا. . . كانت النساء قد اشترين برتقالات حملنها معهن الى السيارة، ونزل ابوك من جانب السائق، ومدّ كفه فحمل برتقالة منها. . اخذ ينظر اليها بصمت... ثم انفجر يبكي كطفل بائس. . .

في رأس الناقورة. . وقفت سيارتنا بجانب سيارات كثيرة . . . وبدأ الرجال يسلمون اسلحتهم الى رجال الشرطة الواقفين لهذا الغرض. . . وعندما اتى دورنا، ورأيت البنادق والرشاشات ملقاة على الطاولة...ورأيت صف السيارات الكبيرة يدخل لبنان طاوياً معارج طرقاتها ممعناً في البعد عن ارض البرتقال. . . اخذت انا الآخر، ابكي بنشيج حاد. . . كانت امك ما زالت تنظر الى البرتقالة بصمت. . .

وكانت تلتمع في عيني ابيك كل اشجار البرتقال التي تركها لليهود. . . كل اشجار البرتقال النظيف التي اشتراها شجرة شجرة، كلها كانت ترتسم في وجهه. . . وترتسم لماعة في دموع لم يتمالكها امام ضابط المخفر. . .

وعندما وصلنا صيدا، في العصر، صرنا لاجئين. . .

* * *

احتوتنا الطريق فيمن احتوت. . كان ابوك قد كَبُرَ عن ذي قبل، وبدا كأنه لم ينم منذ زمن طويل. . . كان واقفاً في الشارع امام الأمتعة الملقاة على الطريق، وكنت اتخيل تماماً انني إن سعيت اليه لاقول شيئاً ما فانه سينفجر في وجهي: يلعن ابوك. . يلعن. . كانت هاتان الشتيمتان تلوحان على وجهه بوضوح، بل انني انا ايضاً، الطفل الذي نشأ في مدرسة دينية متعصبة، كنت ساعتذاك اشك في ان هذا الله يريد ان يسعد البشر حقيقة. . وكنت اشك في ان هذا الله يسمع كل شيء. . . ويرى كل شيء. . ان الصور الملونة التي كانت توزع علينا في كنيسة المدرسة، والتي كانت تمثل الرب يشفق على الاطفال ويبتسم في وجوههم، بدت هذه الصور كأنما هي الأخرى أكذوبة من اكاذيب الذين يفتحون مدارس محافظة كي يقبضوا اقساطاً اكثر. . . لم اعد اشك في ان الله الذي عرفناه في فلسطين قد خرج منها هو الآخر، وانه لاجىء في حيث لا ادري، غير قادر على حل مشاكل نفسه، واننا نحن، اللاجئين البشر، القاعدين على الرصيف منتظرين قدراً جديداً يحمل حلاً ما. . مسؤولون عن ايجاد سقف نقضي الليل تحته: كان الالم قد

بدأ يفتك بعقل الصغير الساذج . .

إن الليل شيء مخيف . . . والعتمة التي كانت تهبط شيئاً فشيئاً فوق رؤوسنا، كانت تلقي الرعب في قلبي . . مجرد ان افكر في انني سأقضي الليل على الرصيف كان يستثير في نفسي شتى المخاوف . . . ولكنه خوف قاسٍ جاف . . . لم يكن احد على استعداد لان يشفق علي . . لم اكن استطيع ان اجد بشراً التجيء اليه . . . وان نظرة والدك الصامتة تلقي رعباً جديداً في صدري . . . والبرتقالة في يد امك تبعث في رأسي النار . . . والجميع صامتون، يحدقون في الطريق الأسود، طامعين ان يبدو القدر من وراء المنعطف يوزع علينا حلولاً لمشاكلنا، ونمضي معه الى سقف ما . . . واتى القدر فجأة . . كان عمك قد وصل البلدة قبلنا . . وكان هو قدرنا .

لم يكن عمك يؤمن كثيراً بالاخلاق، ولكنه عندما وجد نفسه على الرصيف، مثلنا، لم يعد يؤمن إطلاقاً . . . ويمّم وجهه شطر بيت تسكنه عائلة يهودية، وفتح بابه، والقى بأمتعته فيه، واشار لهم بوجهه المكور قائلاً بلسان فصيح : إذهبوا الى فلسطين . . . من المؤكد انهم لم يذهبوا لفلسطين، ولكنهم خافوا من يأسه فذهبوا الى الغرفة المجاورة وتركوه ينعم بالسقف والبلاط . . .

لقد قادنا عمك الى غرفته تلك . . . وكدّسنا فيها مع امتعنه واهله، وفي الليل نمنا على الارض فامتلأت بأجسادنا الصغيرة، والتحفنا بمعاطف الرجال، وعندما نهضنا في الصباح، كان الرجال قد امضوا ليلتهم جالسين على الكراسي . . . وكانت المأساة قد بدأت تجد طريقاً معبداً يقودها الى خلايا اجسادنا كلنا!

لم نسكن في صيدا كثيراً. . . فغرفة عمك لم تكن تتسع لنصفنا، ورغم ذلك فقد احتوتنا ثلاث ليال. . . ثم طلبت امك من ابيك ان يبحث عن عملٍ ما، أو فلنرجع الى البرتقال. . . ولكن اباك صاح في وجهها بصوت يرتجف بالنقمة. . فسكتت. . كانت مشاكلنا العائلية قد بدأت. . . والعائلة السعيدة المتماسكة خلفناها مع الارض والسكن والشهداء. . .

لم أدر من اين اتى ابوك بالنقود. . انني اعرف انه قد باع الذهب الذي اشتراه لامك يوم كان يريدها ان تسعد وان تفخر بأنها زوجه. . ولكن ذلك الذهب لم يأت بالشيء الكثير القادر على حل مشاكلنا، فكان لا بد من مصدر آخر: هل استدان شيئاً؟ هل باع شيئاً آخر اخرجه معه دون ان نراه؟ انني لا ادري، ولكنني اذكر اننا قد انتقلنا الى قرية في ضواحي صيدا. . وهناك، قعد ابوك على الشرفة الصخرية العالية يبتسم لاول مرة. . وينتظر يوم الخامس عشر من أيار كي يعود في اعقاب الجيوش الظافرة. .

واتى يوم «١٥ ايار» بعد انتظار مر. . . وفي الساعة الثانية عشرة تماماً، لكزني ابوك بقدمه وانا مستغرق في نومي قائلاً بصوت يهدر بالأمل الباسل: قم. . فاشهد دخول الجيوش العربية الى فلسطين. . وقمت كالمسعور. . وانحدرنا عبر التلال حفاةً في منتصف الليل الى الشارع الذي يبعد عن القرية كيلومتراً كاملاً. . كنا كلنا، صغاراً وكباراً نلهث ونحن نركض كالمجانين. . وكانت اضواء السيارات تبدو من بعيد، صاعدة الى رأس الناقورة، وحين وصلنا الى الشارع احسسنا بالبرد، ولكن صياح ابيك كان يملك علينا وجودنا. . لقد اخذ يركض وراء

السيارات كطفل صغير. . إنه يهتف بهم. . إنه يصيح بصوت أبح. . إنه يلهث. . لكنه ما زال يركض وراء رتل السيارات كطفل صغير. . . كنا نركض بجواره صائحين معه، وكان الجنود الطيبون ينظرون الينا من تحت خوذهم بجمود وصمت. . . كنا نلهث، فيما كان ابوك يخرج من جيبه، وهو يركض بأعوامه الخمسين، لفافات التبغ يرميها للجنود، كان لا يزال يهتف بهم. وكنا نحن لا زلنا نركض الى جواره كقطيع صغير من الماعز. .

وانتهت السيارات فجأة. . . وعدنا الى الدار منهوكين نلهث بصفير خافت. . كان ابوك صامتاً لا يتكلم، وكنا نحن ايضاً لا نقوى على الكلام. . . وعندما اضاءت وجه ابيك سيارة عابرة. . كانت دموعه تملأ وجنتيه. .

بعدها، مضت الأمور ببطء شديد. . لقد خدعتنا البلاغات ثم خدعتنا الحقيقة بكل مرارتها. . واخذ الوجوم يعود الى الوجوه من جديد. . وبدأ والدك يجد صعوبة هائلة في التحدث عن فلسطين وفي التكلم عن الماضي السعيد في بياراته وفي بيوته. . كنا نحن نشكل جدران المأساة الضخمة التي تملك حياته الجديدة، وكنا نحن ايضاً، اولئك الملاعين الذين يكتشفون بسهولة شديدة، ان الصعود الى الجبل في الصباح الباكر بناء على اوامر والدك، معناه الهاؤنا عن طلب الفطور. . .

وبدأت الامور تتعقد. . كان ابسط شيء قادراً بشكل عجيب على استثارة والدك. . انني اذكر تماماً يوم طالبه احدهم بشيء لا ادريه ولا اذكره. . لقد انتفض. . ثم بدأ يرتجف كمن مسه تيار صاعق. .

ودارت عيونه تلتمع في وجوهنا. . . كانت فكرة ملعونة قد أوجدت طريقها الى رأسه، فانتفض واقفاً كمن وجد نهاية ترضيه. . . وفي غمرة من شعور الانسان بقدرته على انهاء مشاكله، ومن شعوره بالرعب قبل اقدامه على امر خطير اخذ يهذي. . واخذ يدور حول نفسه باحثاً عن شيء لا نراه. . . ثم انقض على صندوق كان قد خرج معنا من عكا واخذ ينثر ما فيه بحركات عصبية مخيفة. . . وفي لحظة واحدة، كانت امك قد فهمت كل شيء. . وبدافع من ذلك الاضطراب الذي تقع فيه الام عندما يتعرض ابناؤ ها للخطر. . اخذت تدفعنا الى خارج الغرفة دفعاً وتطلب منا ان نهرب الى الجبل. . ولكننا لم نبرح النافذة. . . والصقنا آذاننا الصغيرة في خشبها نستمع برعب شديد الى صوت ابيك: «اريد ان اقتلهم واريد ان اقتل نفسي. . . اريد ان انتهي. . اريد ان. . . .»

وسكت ابوك. . وعندما عدنا ننظر الى الغرفة من شقوق الباب، وجدناه ملقى في الارض يلهثُ بصوت مسموع ويمضغ اسنانه وهو يبكي. . بينما قعدت امُك في ناحية تنظر اليه بجزع. .

لم نفهم شيئاً كثيراً. . . ولكنني اذكر انني عندما رأيت المسدس الاسود ملقى على الارض بجانبه. . . فهمت كل شيء. . . وبدافع من ذلك الرعب القاتل الذي يصيب طفلاً شاهد غولاً على حين غرة. . اخذت اعدو في الجبل. . هارباً من الدار. .

وعندما كنت ابتعد عن الدار كنت ابتعد عن طفولتي في الوقت ذاته، كنت اشعر ان حياتنا لم تعد شيئاً لذيذاً سهلاً علينا ان نعيشه بهدوء. . . ان الامور قد وصلت الى حد لم تعد تجدي في حله الا رصاصة في رأس

كل واحد منا . . يجب اذن ان نحرص في تصرفاتنا على ان نبدو بشكل لائق . . . يجب الا نطلب الاكل ولو جعنا . . . يجب ان نسكت عندما يتكلم الاب عن مشاكله ، ونهز رؤوسنا باسمين عندما يقول لنا «اصعدوا الجبل ولا تعودوا الا في الظهر . . . »

في المساء . . عندما خيم الظلام عدت الى الدار . . كان ابوك ما زال مريضاً ، وامك جالسة بجواره ، وكانت عيونكم جميعاً تلتمع كأنها عيون القطط ، وكانت شفاهكم ملتصقة كأنها لم تنفتح ابداً . . . كأنها اثر لجرح قديم لم يلتئم كما يجب . .

كنتم مكومين هناك ، بعيدين عن طفولتكم كما كنتم بعيدين عن ارض البرتقال . . . البرتقال الذي قال لنا فلاحٌ كان يزرعه ثم خرج انه يذبل اذا ما تغيرت اليد التي تتعهده بالماء . .

كان ابوك ما زال مريضاً ملقىً في فراشه ، وكانت امك تمضغ دموع مأساة لم تغادر عينيها حتى اليوم . . .

لقد دخلت الغرفة متسللاً كأنني المنبوذ . . وحينما لامست نظراتي وجه ابيك يرتجف بغضب ذبيح . . رأيت في الوقت ذاته المسدس الاسود على الطاولة الواطئة . . والى جواره برتقالة . .

وكانت البرتقالة جافة يابسة . . .

الكويت ـ ١٩٥٨

قتيل في الموصل

حين كتبت هذه القصة في ١٩٥٩ اهديتها الى صديقي م. الذي ذهب الى الموصل ثم ضاعت اخباره، ولكنني لم انشرها حينذاك لان قصة صديقي م. لم تكن قد انتهت بعد. . كنت اريد ان يصير بوسعي صياغة الاهداء بالشكل التالي:

«الى صديقي م. وقبره يغتسل بالشمس الحقيقية. . . » فكان علي ان انتظر حتى ٨ ـ ٣ ـ ١٩٦٣.

(غ)

* * *

قال فجأة. .

ـ هل تعرف طالباً اردنياً يدرس في جامعة بغداد اسمه «معروف» ؟

ـ قابلته مرة. .

كان الموج قد بدأ يرتفع مع المد حاملاً في خط مستقيم اسراب الجراد

التي سقطت في البحر حينما عجزت اجنحتها الشفافة عن حملها الى الشاطىء، قال بهدوء:

ـ لقد قتل. . .

ـ كيف؟ معروف؟ كيف قتل؟

وصلت في تلك اللحظة موجة صاخبة ألقت امامنا سرباً آخر من الجراد. . تناول منه جرادة صفراء، جسمها الطويل محفوف بأرجل منشارية، ورفعها امام عيني نازعاً جناحيها الشفافين متمتماً بصوت فاجع:

ـ هكذا. . .

ـ ولكن اين قتل. . . اين؟

ـ في الموصل. .

ـ ما الذي قاده الى هناك؟. .

* * *

معروف شاب قصير القامة، نحيل الجسم الى حد مرضي، ولكنه رغم كل شيء يتمتع بروح فكهة تخفي في اعماقه قلقاً له جذور سوداء تمتد الى اليوم الذي كان عمره فيه لا يتجاوز العشر سنوات، حينما وصل مع امه الى اول بئر ماء بعد ان طردا من بلدتهما الصغيرة، اللد. . كانت امه عطشى وكانت حافة البئر مكتظة بمئات من الرجال والنساء الذين ينتظرون فرصهم لكي يشربوا ولكي يعيشوا. . . لقد زاحم الناس

باصرار رجل بائس . . . وحينما عاد الى أمه بالماء الملوث بالتراب : كانت قد ماتت . . .

لقد مرت سنوات طويلة على اليوم ذاك، يوم وقف امامها حاملاً في راحتيه الصغيرتين كوز ماء قذر. . كانت تتكىء على صخرة حمراء. . وجهها الشاحب يفضح اي صمت قابلت به عذاب موت رهيب. . كانت شفتاها سوداوين مجعدتين. . وكان لسانها كبيراً مدوراً يسد مجرى النفس. . لقد وقف لحظة دون ان يعي ...وحينما هزه احدهم كي يسير مع القافلة عرف ان كوز الماء قد خطف من يده اثناء شروده. .

لقد كان الطريق طويلاً منذ غادر البئر الى ان وصل الى باب الجامعة. . كان طريقاً طويلاً موحلاً. . ولكن هل سمع احد في يوم ما ان «معروفاً» يريد شيئاً من هذه الحياة؟ يهمه امر ما؟ يطمح لمستقبل محدد؟ يناضل من اجل هدف؟ يعيش لغاية؟ كلا. . ان احداً لم يسمع. . لقد قال لي مرة فيما هو يقلب جريدة في يده. . «اسمع يا فيلسوفي الصغير. . . الانسان يعيش ستين سنة في الغالب، اليس كذلك؟ انه يقضي نصفها في النوم. . بقي ثلاثون سنة. . . اطرح عشر سنوات ما بين مرض وسفر واكل وفراغ. . بقي عشرون. . . ان نصف هذه العشرين قد مضت مع طفولة حمقاء. . . ومدارس ابتدائية. . لقد بقيت عشر سنوات. . . عشر سنوات فقط، اليست جديرة بأن يعيشها الانسان بطمأنينة؟»

بهذه الفلسفة كان يقابل اي تحد يواجهه. . كان يحل مشاكله بالتسامح. . وحين يعجز التسامح يحلها بالنكتة. . وحين تعجز النكتة يفلسفها. . .

سألته مرة محاولاً ان اجر رأسه لتأييد مشروع حزبي:

- الست تريد الرجوع الى فلسطين؟

قال وهو يضحك..

- حتماً اريد.. لسوف اوفر عليك سؤالك التالي.. اتعرف قصة هانيبال؟ حينما عبر جبال الالب سار وجنوده خلف الافيال.. حسناً.. انا لست فيلاً... انتم الفيلة... حينما تعبرون الحدود الى فلسطين سوف اكون خلفكم.. انا صرصار صغير سأحتمي باظلال فيلة هانيبال...

اتصدق مثل هذا الانسان... الذي عاش على مثل هذه الترهات اللطيفة الساذجة، والذي قاوم كل انواع الجذب، كل انواع التحدي...

اتصدق ان هذا الانسان تغير دفعة واحدة؟. كيف تغير؟؟ لا احد يدري!.. لقد اصبح وجهه مربداً كما لو انه ما زال يحمل كوز الماء امام جسد امه الممد بصمت فاجع.. بل انه كان يجد لذة وراحة حينما يأخذ في الحديث عن تلك اللحظة.. لقد قال لي يوماً اذ كنا عائدين الى الدار في منتصف الليل:

- اتعرف شيئاً؟.. ان حياة بعض الناس كالشريط السينمائي العتيق الذي تقطع، فوصله فنان فاشل من جديد بصورة خاطئة.. لقد وضع النهاية في الوسط ووضع الوسط في النهاية...

كنت اعرف انه يتحدث عن نفسه. ولم احاول ان انظر الى وجهه كي اتأكد من ان عينيه تدمعان ولكنني رغبت في ان اواصل التحدي منتهزاً ضعفه في تلك اللحظة.. فقلت:

ـ اتريد ان اناديك حينما تبدأ افيـال هانيبـال بعبور حـدود فلسطين؟ . . .

ارتجف قليلاً . . ولكنه حافظ على هدوء غريب، وسمعت صوته يهمس باستسلام :

ـ على بعض الرجال ان يقودوا الافيال . . .

لماذا تغير معروف؟ لا احد يدري . . . سألته مرة عن هذا الموضوع فقال وهو يشير براحتيه المبسوطتين كي يؤكد جوابه . . «لا شيء . . . لقد كانت الكذبة فوق والحقيقة تحت . . . فانقلب كل شيء . . . اصبحت الحقيقة فوق والكذبة تحت . . . »

ـ ولكن ما الذي احدث هذا القلب؟ . .

بسط راحتيه الى الامام وقلب شفته السفلى ثم صمت .

* * *

ارتفع المد اكثر من ذي قبل حتى غطى الماء اقدامنا الممدة على الرمل، فابتعدنا قليلاً كي نستريح على صخرة مرتفعة . . كان صوت ارتطام الموج بالصخرة يعطي لحناً جنائزياً للشمس الوردية التي اخذت تهبط ببطء! خلال غيوم قرمزية نحو الماء .

صمت صديقي من جديد كأنما ليحشد صدره بشجاعة جديدة، ثم سأل فجأة :

ـ ولكن اين قابلت معروف؟

ـ لقد تعرفت اليه في السيارة التي عبرت بنا الطريق ما بين دمشق وبغداد.

ـ انت تعرف بغداد اذن؟

ـ آه نعم. . لقد مكثت فيها اكثر من شهر. .

ـ قبل الثورة ام بعدها؟

ـ بعدها بأيام قليلة. . .

ـ هل تعرفت الى معروف جيداً في السيارة؟

* * *

سيارات الدرجة الاولى لشركة (. . .) ليست جيدة على الاطلاق، فالمكيف الذي يميزها عن سيارات الدرجة الثالثة كان معطلاً. . . اما الماء فقد كان بارداً حقاً. . . بارداً الى درجة لم نستطع معها ان نشربه، فجهاز التبريد كان يعمل على مزاجه ولم تكن هناك وسيلة لايقافه عند درجة معينة. . لم تكن السيارة مكتظة بالركاب... وحينما صعدت سلمها القصير لاحظت لتوي ان رفاق السفر لن يكون بوسعهم ان يقصروا الطريق على الاطلاق. . في المقعد الاول جلس شيخ وقور صامتاً كتمثال. . وخلفه مباشرة جلس كهل بشرخ في وجهه ونظارة سميكة، والى جانبه ابنته، او اخته، كانت سمينة وقد لبست فستاناً غريباً يتوسط صدره هرم مقلوب من قماش سميك مما جعل نهديها يندفعان الى الجانبين بصورة غير لائقة. . .

اما بقية الركاب فلقد كانوا من العجائز. . . لقد جلست في مقعدي صامتاً. . الطريق طويل. . والمزعج فيه ان احداً لا يتكلم، ويخفف بكلامه شيئاً من حر بادية الشام.

وصلت السيارة الى «التنف» في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وقبل ان تقف انفجر عجلها الامامي وقال لنا السائق اننا سوف نضطر للانتظار ساعة كاملة من اجل اصلاحه ثم اشار الي ان اهبط كي اساعده. . الهواء على الارض كان بارداً لاذعاً، وحينما حملت المطرقة لاحظت الى جانبي شاباً قصير القامة نحيل الجسم هبط من السيارة ورائي.

قرعنا العجل سوية بالمطارق حتى تعبنا فجلسنا فوقه لنستريح قليلاً ولم اجد بداً من ان اسأل صاحبي القصير النحيل.

- هل كنت راكباً في هذه السيارة؟

- نعم.

- غريب انني لم ارك؟

- كنت غارقاً في مقعدي.

قلت بعد صمت قصير:

- اين تريد الذهاب؟

- انني طالب في كلية الحقوق في بغداد. . وسوف تبدأ الدراسة بعد اسبوع.

ـ انت سعيد بالثورة أليس كذلك؟

ـ سعيد جداً. . . انها خطوة جيدة نحو «اللد».

وحينها عادت السيارة تنهب الطريق الصحراوي، كنت جالساً الى جوار معروف، وبعد لحظات اشار بعينيه الى الكهل الذي كان منهمكاً بقراءة جريدته مع ابنته او اخته ثم مال على اذني وهمس:

ـ اتعرف ممن هؤلاء؟ من الشرفاء التقدميين! انني اخاف على الثورة منهم. . .

غرقنا بعد ذلك في الصمت. . ولكن السيارة سرعان ما توقفت حينها انفجر عجل جديد، وفتح السائق العملاق باب السيارة وطلب منا ان نهبط كي نصلح العجل مرة اخرى. . وقبل ان نصل، رأينا الكهل يقترب من المطرقة الثقيلة، ويرفعها بين كفيه ولكنه يعجز عن ايصالها الى ما فوق رأسه فيلقيها وهو يلهث.

قال معروف منفجراً بالضحك:

ـ ايها التقدمي المسكين، ان تجربتك العمالية الصغيرة قد فشلت، وهكذا فلن تستطيع ان تكون تقدمياً كاملاً. . . ماذا؟ انت لا تستطيع ان ترفع المطرقة! كيف يمكن لك ان تدرك التناقض اذن؟

نظر الكهل الينا بقسوة، ثم عاد ادراجه مسرعاً الى السيارة. . . وكررت الفتاة نفس المشهد ثم اخذت تحجل عائدة خلف كهلها وثدياها يهتزان على جنبي صدرها.

وصلنا بغداد في فجر يوم حار. . . واسرعنا لتونا الى الفندق.

وفي نفس تلك الليلة قال لي معروف:

ـ لسوف يحدث شيء خطير. . ألاحظت؟ انهم يحشدون انفسهم كالديدان، ينحشرون في الفنادق كما لو انهم تداعوا لحشر ارضي، خرجوا من كل ثقوبهم وجاءوا الى بغداد. . لماذا؟ ايمكن ان تكون المؤامرة؟

* * *

سقطت الشمس في نهاية الافق، وبقي منها لون احمر يخضب الغيوم الواطئة. . بعض الجراد استطاع ان يقطع المسافة وهوى على الشاطىء منهكاً يزحف بأرجله المنشارية نحو الرصيف. تناول صديقي جرادة جديدة قصف اجنحتها الشفافة والقاها في الماء. . تحركت قليلاً، ثم طواها الزبد وسمعت صوته:

ـ قتلوه هكذا. . تماماً هكذا. . .

ـ ولكن ما الذي قاده للموصل؟ انا اعرف انه يعيش في بغداد. . .

ـ اتريد ان اقول لك نفس كلامه؟ قال انه يريد ان يخطو نحو اللد، ان الزيف الذي غرقت فيه بغداد قد قطع في صدره كل امل بان يعود وهو يعرف ان الموصل ليست مزيفة على الاطلاق. . وهكذا فانه انتهز عطلته كي يطير الى هناك.

ـ حسناً. . . ماذا حدث هناك؟

ـ ثورة. . .

* * *

بغداد! كل شيء اصبح غير ذي معنى... الديدان خرجت من بطن الارض... واصبح يشعر بان الايدي الكثيرة بدأت تجره بعيداً عن طريق العودة... الحياة هناك تقوم على خطأ... ما هو هذا الخطأ؟.. انه يحسه احساساً صلباً ويحاول ان يقتلعه من شروشه..

ـ ولماذا كل هذا التعب؟ اتركهم... انهم الاسياد الآن.. ولكن ذلك كان مستحيلاً.. كان من العسير رده:

ـ انها ثورة الزنج من جديد.. العبيد يحملون سوادهم في قلوبهم هذه المرة..

ـ يا معروف.

ـ ماذا تفعلون هنا؟ لقد تعودتم ان تعيشوا بلا هواء كالخفافيش... يجب ان نفعل شيئاً.

ـ ماذا نفعل؟

فرضت المعركة عليه فرضاً.. كان في الموصل حينما حدثت الشرارة... واضطر ان يقدم نفسه للحريق...

* * *

الموصل، رفضت الدود الذي زحف اليها من بطن الارض.. كل شيء في المدينة الصغيرة كان راضياً عن نفسه قبل ان يصل زحف الديدان... كان يقف على شرفة دار صديق حين رآهم يقبلون بوجوه ممسوحة بحقد ما تحت الارض... كالدود الذي يتقنع باللون الاخضر كي يمتص الحياة رويداً رويداً... كان يقف على الشرفة، وكانوا يمرون

من تحته بعربدة لحظة خرجت من حدود العقل. . . قال لصديقه ساعتها:

ـ لقد وصلوا الى هنا وعلينا ان نقف في طريقهم. . أرأيت الصراصير كيف تتحكم بمصير «اخيل»؟ انها تلدغه في كعب قدمه. . وهو لا يموت الا من هناك. . . ان الصراصير وحدها قادرة على قتل «اخيل» يا للسخافة!.

وفي الصباح هبط الجيش الى الشارع ... كان كل شيء يحتم هذه اللحظة. . وهربت الصراصير من جديد. . . وفي ذلك اليوم كان معروف في الشارع. . . وقال لصديقه:

ـ مزيداً من الهواء. . . مزيداً من الهواء، لقد عادني ايمان طاغ بانني سوف اعود الى بلدتي الصغيرة. . ما زال «اخيل» قادرا على التنفس. . . وكل شيء حسن طالما انه لم يمت بعد. .

وكانت تنير الشارع شمس حقيقية هذه المرة. . . وكان معروف يتنفس بملء رئتيه، ومن الهواء الذي يحبه. . وكان كل شيء يبدو حقيقياً من جديد. لقد اختفت الصراصير، اما اولئك الذين صفقوا لها طويلاً فلقد التزموا الصمت بانتظار النتيجة. . .

وفي الليلة التالية، حدثت الفاجعة. . . وقال معروف لصديقه وعيونه تدمع:

ـ مات اخيل. . . وعادت الصراصير. . .

ـ وماذا بودك ان تصنع؟

ـ سوف ابقى هنا.

ـ الى متى؟

ـ الى الابد.. ايبدو لك الابد بعيداً؟

لقد رفض معروف ان يهرب.. واصر على ان يبقى هناك حتى تمتص الصراصير آخر خفقة ريح في المدينة... ولقد دأب منذ تلك الليلة على المسير في الشارع الرئيسي ذهاباً واياباً وكفاه معقودتان خلف ظهره... وكانت شفته السفلى ترتجف...

وفي ظهر ذلك اليوم وقف صديقه على الشرفة... ورآه في رأس الشارع غارزاً رأسه بين كتفيه، عاقداً كفيه خلف ظهره يتحدث مع مسلحين.. كان هادئاً، وكان يجيب على الاسئلة بلا مبالاة واضحة، ثم عاد الى مسيره الهادىء وكان يبدو انه لم يجب على آخر سؤال طرحاه، بل قاطعهما وعاد يكمل طريقه..

سار قليلاً قبل ان يصوب الرشاش الى ظهره، ثم تدوي الطلقات المتتابعة ويسقط معروف على ركبتيه ورأسه بين كفيه، ثم تعجز ركبتاه فيهوي على وجهه...

كان يبدو في وضعه ذاك كأنه حفار حيل بينه وبين ان ينقب اعماق الارض، فانحنى يشمها.. كأنه طير قصت اجنحته فسقط.. كأنه جرادة منهكة بعد رحلة قاسية سقطت ميتة على شاطىء جاف يابس.

وفي مساء ذلك اليوم كان جسد «معروف» ما زال ملقى في وسط الطريق بنفس تلك الصورة.. وحينما غربت الشمس حملته سيارة

مع اجساد اخرى واتجهت خارج المدينة . .

ولقد تيسر لصديقه بعد يومين ان يرى ساعته وقلمه مع موظف قال انه اشتراهما ، اما جسد معروف فلقد دفن في حفرة واحدة مع اجساد كثيرة اضطجعت كما قال الحفار كتفاً الى كتف .

ولفت نظر الحفار جسد هزيل قصير لشاب قتلته بضع رصاصات في ظهره، كان الجسد يرفض ان يستوي مع بقية الاجساد، كان منحنياً، مرتاحاً على ركبتيه وجبهته، ولقد اضطر أخيراً لدفنه على تلك الشاكلة ، كأنه يصلي . . .

* * *

بدأت الظلمة تهبط بصورة اقتم . . . وكان صوت الموج قد علا حتى اصبح يطوي كل صوت آخر، واضاءت السفن البعيدة انوارها فبدت في نهاية الافق قناديل مأتم تحملها ملائكة متشحة بالسواد . .

وصلت في تلك اللحظة جرادة حطت على الصخرة امامنا . . . ومد صاحبي كفه كي يلتقطها، ولكنها طارت باندفاع مفاجىء متجهة باصرار فتي نحو المزارع الخضراء الممتدة خلف الرصيف . . .

الكويت - ١٩٥٩

لا شيء

«نقلت الانباء ان جندياً على الحدود صب فجأة رصاص رشاشه على الارض المحتلة فاقتيد الى مستشفى الامراض العصبية!.»

* * *

كانت تلك هي المرة الاولى التي سمع فيها هذا الاصطلاح: «انهيار عصبي»! وسأل الممرض فيما كان يقتاده الى الخارج:

ـ ماذا يعني انهيار عصبي؟.

اجاب الممرض بجفاء:

ـ يعني انك لست على ما يرام!.

رفع يده ودق باصبعه على جانب رأسه وسأل:

ـ هنا؟

ـ نعم، هنا!

وقف هنيهة، لم يكن متأكداً من اي شيء، ثم عاد فسأل مرة اخرى

لمجرد انه لا يعرف ماذا يتعين عليه ان يقول:

ـ انهيار عصبي.. هنا؟

ـ نعم...

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ يعني انك لست على ما يرام..

ـ كيف؟.

جذبه الممرض من ذراعه بعنف فأحس بأنه انما كان يقول كلاماً فارغاً وانه لم يكن ليستطيع التحكم بلسانه، كان ثمة عنكبوت اسود كبير قد تمركز في جبينه من الداخل واخذ يبني شباكه الدقيقة القاسية بين عينيه.

ـ الى اين ستأخذني الآن؟.

ـ عليك ان تقابل الرئيس..

حاول ان يقف الا ان الممرض دفعه بعنف، فأكمل مسيره..

ـ قل لي، هذه المقابلة مع الرئيس، هل تتعلق بحكاية الاعصاب هنا؟.

اشار الى جانب رأسه مرة اخرى، ومضى العنكبوت يشد خيوط شباكه..

ـ اغلب الظن نعم..

ـ نعم ماذا؟.

ـ اوف! .

مرة اخرى احس بأنه، فعلاً، ليس على ما يرام. . ولكنه كان يرغب في اطلاق سراح لسانه الى ابعد مدى مستطاع:

ـ هل تعرف شيئاً؟ .

ـ ماذا ؟

ثبت قدميه في الارض وهز اصبعه بوجه الممرض المرافق، ولما حاول الاخير ان يدفعه شنج ساقيه وامتنع . .

ـ اريد ان اقول لك شيئاً. .

ـ ماذا؟ .

ـ صحيح انه انهيار عصبي . . ولكنه ليس هنا . .

ـ اين اذن؟ .

اشار الى صدره وقال بهدوء:

ـ هنا . .

ـ الانهيار العصبي لا يحدث هناك قط . .

ـ من قال ذلك؟ .

ـ الاطباء . .

ـ انهم مجانين.

مشى قليلاً، ثم وقف وهز اصبعه بوجه الممرض مرة اخرى . .

ـ الاطباء مجانين. . ثم ان هذه ليست حالة طبية، انها حالة عسكرية. .

ـ لماذا هذه الحالة حالة عسكرية؟.

ـ لانني انا نفسي عسكري!

ـ وما الفرق؟

ـ ماذا تعني؟

عاد الممرض، فجذبه بعنف وسار به في الممر النظيف الصامت. . كانت الابواب مغلقة على طول الجانبين، وكان العنكبوت قد بدأ يغني وهو يكمل نصب شباكه القاسية بين عينيه. .

ـ أهو بعيد من هنا؟

ـ من؟.

ـ الرئيس. .

ـ في آخر الممر. .

كان يزعجه ان ينتهي الحديث بتلك السرعة، وكان يحس بأن عليه ان يتكلم كثيراً، لقد كانت رغبة جارفة تتمسك بصدغيه وتهزه بلا هوادة. . وكان الممرض المرافق يصر على سحبه بعنف، وكانت محاولات التوقف تذهب هباء. .

ـ اسمع، لقد اتعبتني. . لنقف قليلاً ونستريح. . ثم انني ـ كما قال الطبيب ـ رجل مريض.

وقف الممرض، وقاسه بعينيه ملياً، ثم هز رأسه واطبق شفتيه باحكام، بينما اتكأ على الحائط ومضى يتابع خطوات العنكبوت البطيئة وهو يتنقل في جبينه متماً بناء عشه..

ـ كيف عرف انني مصاب بـ.. بـ.. بذلك الشيء المتعلق بالاعصاب هنا؟

ـ الانهيار العصبي؟

ـ نعم.. الانهيار العصبي.. كيف عرف؟

ـ لقد سألك اسئلة خاصة.. وهم يعرفون المرض من الاجوبة...

ـ ولكنه لم يسألني كثيراً، سألني مرتين أو ثلاث مرات ثم انكب على دفتره يكتب.. قال لي: ماذا شعرت قبل ان تطلق الرصاص؟ فقلت له لم اشعر بأيما شيء.. ثم قال: ماذا شعرت بعد ان اطلقت الرصاص؟ فقلت له: لم اشعر بأيما شيء.

ـ فقط؟.

ـ اوه كلا! لقد اصيب بخيبة امل كبيرة حينما قلت له لا شيء!. وكان يريد ان يكتب وكنت اريد ان اساعده حقاً فقلت له..

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت له انني بعد ان اطلقت الرصاص شعرت بشيء واحد فقط، هو ان مشط الفشك سريع الانتهاء.

ـ اشعرت بذلك حقاً؟

هز رأسه بأسى، وكان العنكبوت قد اتم نسج بيته كله، ثم وقف في الوسط رافعاً اذرعته المتعددة باحثاً عن ذبابة. .

ـ اوه. . نعم! انت لا تتصور كم كان ذلك مذهلاً! ضغطة واحدة على الزناد وينتهي الأمر. . انهم لا يحملوننا سوى مشط واحد. .

ـ هيا بنا. .

شده من ذراعه فمشى معه وقد احس بالالفة لأول مرة، منذ ذلك الوقت الذي تلقى فيه ضربة قاسية على مؤخرة عنقه، ثم نقلته سيارة الجيش الى المستشفى. . وفي غمرة ذلك الشعور المريح لاحظ بأنهم خلعوا عنه بذلته العسكرية والبسوه لباساً غريباً. . ولكنه لم يشأ ان يحزر متى حدث ذلك. .

ـ . . لقد قتلت اثنين. .

ـ من؟

ـ انت، حينما اطلقت رصاصك قتلت اثنين منهم. . .

ـ واين المفاجأة؟ حينما يطلق المرء رصاصاً فانه يطلقه على شيء ما. .

ـ كنت تتعمد ذلك؟

ـ أووف! . ماذا تحسب اذن؟

ـ كنت احسب انه انهيار عصبي! . .

ـ وما الفرق؟

ـ الفرق ان المصاب بانهيار عصبي لا يتعمد ذلك؟.

وقف فجأة فتقطعت خيوط بيت العنكبوت واهتز في مكمنه الا انه ما

لبث ان انطلق بعناد لاصلاح ما انفتق من الشباك .

ـ انهم يحسبون اذن انني لم اتعمد ذلك؟

ـ اجل!

ـ كلا! لقد تعمدته!

ـ لو قلت ذلك امامهم لسجنوك، الافضل ان تمسك لسانك . .

صار العنكبوت يعمل بصخب وجنون واخذ يحدث ضجة في جبينه، خيل اليه انه على وشك ان يقع، ودار الممر الطويل دورة كبيرة حول نفسه ثم عاد الى ما كان عليه . .

ـ لماذا يريدون ان اقول انني لم اتعمده؟ .

ـ لانه عمل غير صائب . .

ثبت قدميه في الارض فعاد الممرض لسحبه الا انه نفض ذراعه بعنف وتقطعت خيوط اكثر في بيت العنكبوت . .

ـ اتريد ان اقول لك شيئاً؟

ـ كلا! اريد ان تمشي معي، لقد ضيعنا نهارنا . .

ـ لن امشي قبل ان اقول لك شيئاً . .

ـ حسناً، قل . .

ـ انا مصاب بهذا الشيء المتعلق بالاعصاب لانني تعمدت ان اطلق الرصاص . . اليس كذلك؟ .

ـ اجل. .

تقطع المزيد من الخيوط في بيت العنكبوت وضجت الحشرة السوداء بجنون وهي تحاول رتق الفتق. . واكمل:

ـ وهم ليسوا مصابين بذلك الشيء الخطير المتعلق بالاعصاب لانهم يتعمدون ان لا يطلقوا الرصاص. . اليس كذلك؟. .

ـ اجل، ماذا تريد ان تقول؟. .

ـ ماذا اريد ان اقول؟ اوف! لا شيء. . لا شيء. .

سار بهدوء، وكان يدق ارض الممشى بقدميه الكبيرتين فيهتز جسده الضخم، وكان العنكبوت يرتج في جبينه، والخيوط تتقطع بعنف. . ثم يهتف. .

ـ اسمع، هل انت متأكد ان هذا هو الصحيح؟.

ـ ماذا؟

ـ هذا الذي قلته قبل قليل عن موضوع الاعصاب؟

ـ طبعاً. . طبعاً. .

نظر الى المرض بامعان. . كان العنكبوت قد بدأ يتلاشى، وامحت، فجأة، كل آثار خيوطه المتشابكة وصار جبينه من الداخل نقياً كبلاطة رخام ابيض. .

حسناً. . دعنا نذهب الى الرئيس!. .

بيروت ـ ١٩٦٢

سلسلة أعمال غسان كنفاني

١ ـ موت سرير رقم ١٢	قصص قصيرة
٢ ـ أرض البرتقال الحزين	قصص قصيرة
٣ ـ رجال في الشمس	رواية
٤ ـ عالم ليس لنا	قصص قصيرة
٥ ـ الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك)	رواية
٦ ـ ما تبقى لكم	رواية
٧ ـ أم سعد	رواية
٨ ـ العاشق / برقوق نيسان / الأعمى والأطرش	روايات
٩ ـ عن الرجال والبنادق	قصص قصيرة
١٠ ـ الباب	مسرحية
١١ ـ الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨ ـ ١٩٦٨	دراسة
١٢ ـ القبعة والنبي	مسرحية
١٣ ـ القميص المسروق وقصص أخرى	قصص
١٤ ـ أدب المقاومة في فلسطين المحتلة	دراسة
١٥ ـ جسر إلى الأبد	مسرحية
١٦ ـ في الأدب الصهيوني	دراسة
١٧ ـ عائد إلى حيفا	رواية

● يمكن الحصول على هذه السلسلة وبقية منشورات مؤسسة الأبحاث العربية من الموزعين والمكتبات أو مباشرة من مؤسسة الأبحاث العربية ص. ب. ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران)، هاتف: ٨١٠٠٥٥ ـ ٨١٠٠٥٦، تلكس ٢٠٦٣٩. دلتا ـ بيروت ـ لبنان.

— **IAR (RAWAFID) Ltd.**

P.O.Box 7047, Nicosia, Cyprus,

Tel. (357) 2 - 452670, TLx. 5223 Rawafid - Cy.